

أثر الصراعات العسكرية في الفلاح الشامي إبان الحكم الأيوبي (570-648هـ/1174-1250م)

محمود محمد الرويضي¹، عبد المعز عصري بني عيسى²، محمد علي المزودة³<https://doi.org/10.35516/jjha.v17i1.956>

ملخص

تهدف الدراسة إلى بيان أثر الصراعات العسكرية الإفرنجية والصراعات العسكرية بين ورثة السلطان صلاح الدين الأيوبي وأخيه العادل في حياة الفلاح الشامي إبان الفترة الأيوبية، وما رافقها من تهجير الفلاحين وهجر الأراضي الزراعية وإهمال العمل بالزراعة والمهن وارتفاع في الأسعار وانعكاسها على حياة الفلاح، وكذلك دور القبائل العربية في إلحاق الأذى والخراب بأراضي فلاحية بعض المناطق الشامية.

الكلمات الدالة: الفلاح الشامي، الأيوبيون، الإفرنج، الحروب الإقطاعية، القبائل العربية.

المقدمة

اعتمد الفلاح الشامي العامل في ميدان الفلاحة والزراعة في حياته المعيشية على ما تنتجه الأرض من محاصيل زراعية، إلى جانب تربيته أنواعاً من الحيوانات والطيور الداجنة، وكان جلاً اهتمامه أن يعتمد على فلاحة أرضه التي توفر له ولأسرته الدخل السنوي الذي يمكنه من البقاء والاستمرار.

وكانت فئة الفلاحين الأكثر تضرراً كلما عصفت بالمنطقة الصراعات والحروب؛ إذ عانى الفلاحون من شر تلك الحروب التي جرت على الأراضي الزراعية، فهجروا أراضيهم خوفاً على أرواحهم إذا سلمت من الحروب، كما أنهم كانوا يقعون فريسة لهجمات القبائل البدوية التي سكنت بلاد الشام، أو لعساكر الخوارزمية الذين قدموا الشام خلال العصر الأيوبي، وما اقترفته أيديهم من أعمال التخريب والسلب والتدمير، فكانت النتائج وخيمة على الفلاحين من ساكني البلدان الشامية.

أثر صراعات الإفرنج في حياة الفلاح الشامي:

عانى الفلاح الشامي جزاء الصراعات والحروب العسكرية التي خاضها المسلمون مع الإفرنج إبان الحكم الأيوبي وما رافق تلك الحروب من أنواع الحصار التي تعرضت لها المدن والقرى الشامية؛ حيث أدت إلى تمزيق الريف الشامي الممتد بين المدن والحصون وتناقص أعداد سكانه، ورغم معاهدات الصلح بين الأيوبيين والإفرنج فإن الفلاحين في

¹ قسم التاريخ، جامعة مؤتة، الأردن.

² قسم التاريخ، جامعة اليرموك، الأردن.

³ قسم العلوم الانسانية، كلية الاداب والعلوم، جامعة قطر، قطر؛ قسم التاريخ، جامعة اليرموك، الأردن.

تاريخ الاستلام: 2021/11/11، تاريخ القبول: 2022/1/30.

الأرياف الشامية كانوا لا يكادون العودة لأعمال الفلاحة إلا ويفاجؤوا بهجمات جماعات الإفرنج المتعصبين القادمين من الغرب معبرين عن غضبهم وحماسهم بمهاجمة الفلاح الشامي الأعزل بكل أنواع العذاب بعد أسرهم وسلبهم أموالهم وتدمير مزارعهم (المقريزي 1997 ج1: 553-574).

وَجَسِدٌ سَوْءٌ حال الفلاح الشامي بكثرة الضرائب التي فرضت عليه وما تعرضت له أراضيه ومحاصيله من حرق وتخريب للمحاصيل الزراعية جراء الغزو الإفرنجي الأمر الذي كان ينعكس على ترك أراضيهم والبحث عن أماكن أكثر أمناً واستقراراً (رمضان 1977: 172).

وقد انعكس الوضع الذي آل إليه حال الفلاح الشامي جراء الغزو الإفرنجي على الإجراءات التي اتخذت من قبل حكام بلاد الشام لإصلاح حالهم والعمل على تحسين وضعهم وتشجيعهم للعمل بالزراعة وتعويضهم عن خسائرهم جراء الغزو الإفرنجي لأراضيهم، حيث أسقطت عنهم المكوس والضرائب باستثناء الخراج والجزية اللتين فرضتا عليهم بصورة معقولة (رمضان 1977: 179).

إن الفلاحين من سكان عكا نتيجة الحصار الذي فرض على المدينة من قبل الإفرنج سنة 585هـ/1189م، واجتياح العساكر القرى المحيطة بعكا في سنتي 586 و587هـ/1190 و1191م، أجبرت سكانها الالتحاق بعكا والانضمام إلى سكانها والاستعداد لمقاومة الإفرنج، وقد بذلوا كل ما في وسعهم لصد هجماتهم، بعد أن تركوا أعمالهم في الأراضي والمزارع ولجأوا إلى إخراج ما ادخروه من المحاصيل ليقفوا عليه بعد أن نفذت الأقوات بسبب الحصار المفروض (ابن العديم 1996 ج2: 588-592؛ ابن الفرات 1970 مج4، ج1: 242).

وكان فلاحو قرى عكا قد أجبرتهم الظروف الطارئة على التشف في النفقة والاقتصاد في استهلاك منتجات الزراعة الغذائية، فابتعدوا عن ساحات القتال هارين من سوء المنظر وأغلقوا على أنفسهم أبواب المنازل وقلوبهم ترتعب خوفاً، راضين بالقليل وقلوبهم تنتزع إلى السماء دعاءً للسلطان صلاح الدين الأيوبي وجيشه لتحقيق الانتصار على الإفرنج المغتصبين لبلادهم. وكانت معاناة الفلاح الشامي تزداد كلما دق ناقوس خطر الإفرنج في البلاد الشامية مع الاستمرار في مقاومتهم من قبل العساكر الأيوبية ومقارعتهم لأجل القضاء عليهم وإخراجهم من البلاد الشامية، وكان الأهالي في القدس ويفا وعسقلان قد لازمهم الخوف الشديد فسلموا أمرهم لله عز وجل، وذلك بعد أن منيت عساكر صلاح الدين المرابطة أمام مدينة صور وعكا بالهزيمة على أيدي الإفرنج سنة 585هـ/1189م، وما أحدثته تلك العساكر المنهزمة من نهب وسلب لممتلكات العامة في دمشق وما حولها، الأمر الذي نتج عنه حالة من عدم الاستقرار وانتشار الفوضى، وقد حصل ذلك لسكان الأراضي الواقعة بين مدينتي صور وعكا، وذلك عندما وقعوا تحت السيطرة الإفرنجية، سنة 587هـ/1191م، حيث هربوا إلى الدور والمنازل بعد أن تركوا أعمالهم ومزارعهم (ابن الأثير 2003 ج10: 195، 205؛ أبوشامة 1997 ج4: 46-69؛ ابن الفرات 1970 مج4، ج2: ص35-36).

والواقع أن العساكر الإسلامية قد ارتكبت خطأً بالاعتداء على ممتلكات الشاميين في دمشق وضواحيها ولم يكن لذلك مبرر، وبخاصة أن القيادة الأيوبية لم تتخذ إجراء تجاه تلك الأعمال مما زاد من قلق ومخاوف الفلاحين في دمشق والمناطق المحيطة بها أكثر من الذين كانوا تحت وطأة الاحتلال الإفرنجي.

وكان أهالي عكا على اختلاف فئاتهم الاجتماعية قد استمروا في المعاناة طيلة السنوات السابقة نتيجة تحركات الإفرنج، فقد هجر الفلاحون أراضيهم الزراعية حيث لم تتح لهم الفرصة في العمل داخل أراضيهم وزراعتها، فانعكس ذلك على الإنتاج الزراعي وشحت المحاصيل الزراعية، مما دفع السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى إرسال النفقات

والأقوات الكثيرة إليهم، خشية تعرّضهم إلى الهلاك بسبب نفاذ الأقوات وارتفاع أسعارها (ابن الأثير 2003 ج10: 204، 207؛ ابن شداد 1992: 266-267؛ العيني 2010 ج2: 121-129، 137، 156، 174، 178، 183).
ويذكر صاحب كتاب عقد الجمان عن أهل عكا: "وأما أهل البلد فانهم انقسموا أقساماً؛ قسم ينزلون إلى الخندق ويقطعون الموتى والدواب التي يلقونها فيه قطعاً لسهل نقلها، وقسم يذبّون عنهم ويدافعون حتى يتمكنوا من ذلك وقسم في حراسة الأسوار، ومع هذا يداخلهم التعب والنصب وتكاثرت شكايتهم من ذلك، وقد ابتلوا ببلية لم يبل بمثلها أحد".
(العيني 2010 ج2: 181)، ولم تنفج أحوالهم إلا بعد أن أرسل أهل بيروت والقاهرة بطسة⁽¹⁾ محملة بالقمح والجبن والبصل، والأغنام، وكانوا قد أهلكهم الجوع، ولم يجدوا طعاماً، حيث خارت قواهم وعجزوا عن مقاومة أعدائهم، ولعلّ هذه الامدادات قد جاءت لهم بعد أن ردّدوا عبارات وصلت إلى مسامع السلطان صلاح الدين، تقول: "نحن الغد نسلم البلد ونطلب الأمان أن لم تعملوا معنا شيئاً، ونشتري مجرد رقابنا" (العيني 2010 ج2: 181م؛ ابن الفرات 1970 مج4، ج1: 228-229، ج2: 13-14).

وكان مخاوف أهالي عكا قد ازدادت بعد سقوط مدينتهم بأيدي الإفرنج سنة 587هـ/1191م، وتعالّت صيحاتهم "وضجوا بالبكاء والوعويل". (ابن الأثير 2003 ج10: 205)، وكان السلطان صلاح الدين قد عجز عن إنقاذ أهالي عكا رغم تعداد محاولاته (زكار 1998: 322-326)، ويصف العيني (ت 855هـ/1451م) الواقع قائلاً: "والسلطان كالوالدة الثكلى - يتحرك بفرسه من طلب إلى طلب، ويحث الناس على الجهاد، والسلطان يطوف بين الأطلاب، وينادي بنفسه: يا آل الاسلام، وعيناه تذرّفان بالدمع، وكلما نظر إلى عكا، وما حلّ بها من البلاء، وما يجري على ساكنيها من المصاب العظيم، اشتد في الزحف، والحث على القتال...". (العيني 2010 ج2: 167، 181، 187؛ ابن الفرات 1970 مج 4، ج2: 26؛ أبو الفداء 1907 ج3: 79).

وكان مردّ عجز السلطان صلاح الدين عن الحفاظ على عكا وإنقاذ أهلها من شرور الإفرنج، التعليمات التي أصدرها إلى أكثر العساكر التي قدمت لنجدة عكا بالعودة إلى بلادها تقديراً منه بحلول فصل الشتاء وظناً منه أن شدة الأمطار واستمرارها سينهي الحصار، فعادت عساكر سنجار والموصل وغيرها من البلدان إلى بلادها وفي المقابل كانت النجدة الإفرنجية قد قدمت من أوروبا لدعم الحصار الإفرنجي لعكا (زكار 1998: 235؛ أبو الفداء 1907 ج3: 79) الأمر الذي رجّح كفة قواتهم المحاصرة وتفوقها على جيش السلطان، ودخولهم المدينة وقتل أعداداً كبيرة من أبناء عكا وأرسوف⁽²⁾، ومصادرة أموالهم، وتماديهم باجبار أهالي طبريا على الرحيل (أبو الفداء 1907 ج3: 79؛ ابن الفرات 1970 مج4، ج2: 26؛ العيني 2010 ج2: 167، 181، 187).

ويصف المؤرخ إمبرويز Ambroise كشاهد عيان لأحداث عكا عن الوضع الذي آل إليه أهالي عكا والمناطق المحيطة بها قائلاً: "عانوا مطولاً من قلة الطعام، ومع مرور الوقت، ازدادت المعاناة وازداد النقص، وتحملوا مجاعة عظيمة وباتوا في حالة مرعبة جداً، وصاروا قانطين بسبب العوز والمجاعة واضطروا لذبح حيواناتهم وأكل لحومها،

(1) البطسة: مركب بحري كبير من أصل إسباني، وقد اشتهر هذا النوع أيام الصليبيين، ومن أشهر سفنهم يأتي على طبقات وكل طبقة مخصصة لفئة من الجيش بأسلحتها يحمل على متنه ما يزيد على ألفين وخمسمائة شخص، فضلاً عن شحن الغلال والأقوات والمير والأموال:، انظر النخيلي، درويش، السفن الإسلامية على حروف المعجم، جامعة الإسكندرية، 1974، ص14-15؛ الخطيب، معجم المصطلحات، ص81؛ دهمان، محمد أحمد (1990)؛ معجم الألفاظ التاريخية، بيروت: دار الفكر، ص35.

(2) أرسوف: مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويفا. انظر: الحموي، معجم البلدان، مج1: 151.

ورؤوسها، ورقابها وأحشائها، وإقدامها. فعانوا من مأساة حادة جدًا وألام، وعوز، ومجاعة لا يمكن وصفها. " (زكار 1998: 231؛ للمزيد انظر: حبشي 2000: 18-19)، لا شك في أن الحال المنتهي إليه آلام الأهالي من سكان عكا ومناطقها مرده إلى تجاهل القيادة الأيوبية عن تحصين المدينة بالشكل المطلوب تحسبًا لأي هجوم في المستقبل، وكان الأولى إنفاق أموال قطيعة أهل بيت المقدس عند فتحها سنة 583هـ/1187م في تعزيز سبل الدفاع عنها وعن غيرها من المناطق الشامية، غير أن هذه الأموال قد نفذت في وقتها واقتسمها أمراء الدولة الأيوبية، ولم يدخر شيئًا منها في الخزائن، ولعل ما حدث في عكا انعكس على أمراء الدولة الأيوبية وأدخلهم في حالة من الندم على عدم مقدرتهم في مواجهة الإفرنج.

إن سياسة القتل الجماعي والتجهير التي فرضتها القوات الإفرنجية على الأهالي في المدن والأرياف الشامية بشكل عام، وفي عكا وطبريا بشكل خاص، قد سببت أضرارًا بالغة وألحقت الأذى بجميع الفئات الاجتماعية، في حين كان أشدها وطأةً على أصحاب المهن والحرف من الصناع والفلاحين، والفقراء والمعدمين من سكان تلك المناطق. واستمرت معاناة أهالي بعض المناطق الشامية إلى العام التالي لسقوط عكا سنة 588هـ/1192م، لا سيما المقدسيين، فقد هرب أكثرهم نحو البرية وذلك بعد أن تناهت الأخبار إلى مسامعهم بهزيمة العساكر الإسلامية على يد الإفرنج، ولم تهدأ الأحوال إلا بعد التوقيع على معاهدة صلح الرملة سنة 588هـ/1192م، ومما يدل على حجم المعاناة التي تسببت بها الحروب للأهالي في معظم مناطق بلاد الشام، إقدام الفلاحين وغيرهم على نهب الغلال والأطعمة وأنواع الأقمشة والأثاث عند دخولهم مدينة يافا؛ قبيل إتمام الصلح بين الأطراف المتحاربة (ابن الفرات 1970 مج4، ج2: 64، 76).

وكان السلطان صلاح الدين الأيوبي قد ضاق ذرعًا بانتصار الإفرنج عليه في عكا، وحيث كانت الهزيمة أشد قسوة على من انكوى بنيران الإفرنج مثل بعض المناطق الشامية كالفلاحين البسطاء وأرياب المهن الصغيرة وغيرهم من شرائح الطبقة العامة، وبدأت ملامح ضعف الدولة الأيوبية بادية على قواتها، وما يؤكد الضعف الذي استشرى في جسم الدولة الأيوبية بعد سقوط عكا (إمبرويز 1998: 328؛ أبو شامة 1997 ج4: 283-284) نفور عساكر صلاح الدين الأيوبي ومظاهرتهم بالمخالفة (أبو شامة 1997 ج4: 220؛ زكار 2000 ج1: 375) واستيلاء الإفرنج على بعض المدن الفلسطينية (أبو شامة 1997 ج4: 271)، والتنازلات التي قدمها السلطان لأعدائه من خلال الصلح الذي أبرمه مع الإفرنج (أبو شامة 1997 ج4: 271 وما بعدها؛ زكار 2000 ج1: 372).

وكانت سياسة السلطان الاحترازية لمنع الإفرنج من بسط نفوذهم على المدن ومناطق الأرياف والقرى والحصون والأبراج قد أثقلت كاهل المسلمين، فكان يعمد إلى خرابها ويبيع للناس أخذ المخزون الذي يعجز عن نقله (أبو شامة 1997 ج4: 279؛ زكار 2000 ج1: 375). وقد أشار أبو شامة نقلًا عما شاهده العماد عام 587هـ/1191م من تدمير للأراضي والأبراج على الساحل الفلسطيني قائلًا: "فقال بكائي على رسومها وفضّ ختومها، وقبض أرواحها من جسومها، وحلول الدوائر بدورها، ونزل السوء بسورها، فما برح السلطان منها حتى رأينا طولها دوارس، ورسومها طوامس، والرؤوس حياء من معاهدها نواكس،، وعادت بعد ذلك لحضرة المسلمين" (أبو شامة 1997 ج4: 280-282). الأمر الذي أدى إلى زيادة معاناة أهالي تلك المناطق التي دخلت تحت السيطرة الإفرنجية، ولم يعد انتصار صلاح الدين الأيوبي في حطين يجدي نفعًا كون الحال عاد إلى سابق عهده من حال المسلمين، فذاق الفلاح ذرعًا وازدادت حياته المعيشية قساوةً ببقائه تحت رحمة الإفرنج وسيطرتهم على مصادر إنتاجه.

لم يكن سكان تلك المناطق وحدهم من تأذى نتيجة هذه الحروب، فقد انتشر الخوف في مدن البلاد الشامية وقرائها

مثل: حماة وحمص والبقاع وشيزر وغيرها، وانعكس ذلك على فلاحي الأرض الذين كرهوا الخروج لممارسة أعمالهم في الزراعة كالمعتاد، بسبب تحركات الجيوش المرابطة على الدوام في بلاد الشام من أجل صد هجمات الإفرنج المتكررة، خاصة القادمة من جهة الكرك ومناطق بيسان وطبريا والقدس وغيرها، التي شكلت خطراً كبيراً على أهالي الشام. (ابن العديم 1996 ج2: ص527، 522، 554، 552 - 555؛ المقرئزي 1997 ج1: 168، 175، 173، 219؛ ابن العماد الحنبلي 1996، 41).

وكان بعض الفلاحين ورعاة المواشي في أراضي الشام بالقرب من حارم⁽³⁾ قد تعرضوا إلى القتل والسبي وفقدان الأموال والأغنام من قبل ابن ليون الأرمني في سنوات 576 و602 هـ و634 هـ/1205، 1236 م (ابن الأثير، 2003م، ج10، ص102-103، 319)، وشهد الفلاح في مدن دمشق وحمص وحماة وقراهما، والرقيطا وحارم والقدس والبقاع⁽⁴⁾ وشيزر ومدن اللاذقية⁽⁵⁾ والرملة وأريافهما، معاناة من غارات الإفرنج على أراضيهم في السنوات التالية (572، 573، 599، 574، 603، 604، 605 هـ/1176، 1177، 1178، 1202، 1204، 1206، 1207، 1208، 1210 م)، حيث أحدثت خرابا في القرى والمزارع بسبب عمليات الحرق والسلب والنهب (ابن الأثير 2003 ج10: 81-82، 85-86، 91-93، 297، 342؛ سبط ابن الجوزي 2013 ج22: 143؛ ابن العديم 1996 ج2: 627-628، 533؛ أبو الفداء 1907 ج3: 60، 106؛ المقرئزي 1997 ج1: 273، 281، 277).

كما تعرضت قرى دمشق إلى السلب والنهب من قبل القوات الإفرنجية سنة 578 هـ/1182 م، ونهبت ضواحي الداروم⁽⁶⁾ سنة 579 هـ/1183 م، ومرّد ذلك إلى عدم جاهزية المواقع الحدودية وتحصيناتها تحسباً لأي هجوم إفرنجي؛ بسبب انشغال أكثر العساكر الأيوبية في الصراع الدائر بينها وبين العساكر الزنكية التابعة لأمرء الموصل وما حولها من مدن الجزيرة الفراتية. هذا وقد امتدت أيدي الإفرنج إلى أراضي الأردن ومرج عكا وكفر كنا⁽⁷⁾، وقتلوا كثيراً من سكان تلك المناطق سنة 600 هـ/1203 م. (المقرئزي 1997 ج1: 190، 193؛ ابن الفرات 1970 مج5، ج1: 13).

وكانت الأراضي في الغور وقرى الشام القريبة مسرّحاً للعمليات الحربية بين المسلمين والإفرنج، وقد تسبب ذلك في خلو الأراضي من فلاحها الذين فرّوا هاربين إلى المدن والقرى البعيدة عن ساحات القتال، بينما اعتاد بعض السلاطين وملوك الدولة الأيوبية على محاربة الإفرنج في أراضي الغور، فقد أخلى الملك العادل بعض المناطق الزراعية من سكانها، حيث أجلى في سنتي 594 هـ/1197 م و614 هـ/1217 م أهالي جبلة⁽⁸⁾ واللاذقية وعجلون خوفاً عليهم من هجمات الإفرنج، وكان يعمل على إعمارها وإصلاح ضيعها ومزارعها في نهاية كل عام. (سبط ابن الجوزي 2013 ج22: 218؛ ابن العديم 1996 ج2: 610-611، 643).

ولهذا فإن الفلاح الشامي لم يتسن له الشعور بالأمان طيلة العام وكان يغلب عليه الخوف، فأثر الاحتماء خلف أبواب منزله لعدم قدرته على الذهاب إلى أرضه، ولم يكن ليهنأ حتى بعد أن تضع الحرب أوزارها حتى يبدأ العمل بإعادة

(3) حارم: حصن حصين وكورة جليلة مقابل أنطاكية، وهي من أعمال حلب، انظر: الحموي، معجم البلدان، مج 2: 205.

(4) البقاع، أرض واسعة بين دمشق وحمص وبعليك تكثر فيها القرى ومياها غزيرة. انظر: الحموي، معجم البلدان، مج 1: 470.

(5) اللاذقية، مدينة في ساحل بحر الشام وهي غربي مدينة جبلة. انظر: الحموي، معجم البلدان، مج 5، ص 6-7.

(6) الداروم: قلعة تقع على الطريق بين غزة ومصر. للمزيد، انظر: الحموي، معجم البلدان، مج 2: 424.

(7) كفر كنا: بلد بفلسطين. انظر: الحموي، معجم البلدان، مج 4: 470.

(8) جبلة: قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية. انظر: الحموي، معجم البلدان، مج 2: 105.

بناء ما خربته الحروب.

استمرت الحملات الإفرنجية على المدن والقرى الواقعة ما بين بيسان⁽⁹⁾ وبانياس⁽¹⁰⁾ ومرج عكا وصيدا⁽¹¹⁾ والشقيف⁽¹²⁾ سنة 614هـ/1217م، فكانت أشد وطأة على أهلها بعد أن نكل بهم الإفرنج أعظم تنكيل، وبالغوا بالقتل والحرق ما يذهل العقول، فذكر ابن الأثير: "فانتهبوا وسائر أعمالها، وبذلوا في أهلها السيف وأسروا وغنموا ما يجلب وصفه" (ابن الأثير 2003 ج10: 373-374؛ للمزيد، انظر: أبو شامة 2002: 155-157؛ أبو الفداء 1907 ج3: 117-118؛ ابن كثير 1985 ج13: 76؛ المقرئ 1997 ج1: 307).

وإن تمكن الفلاحين وسائر العمال من العودة إلى مزاولة أعمالهم، نتيجة الانتصارات التي تحققت الجيوش الإسلامية على الإفرنج، والتي تعمل على رفع المعنويات لدى أهالي الشام على اختلاف فئاتهم، باعتبارها نوعاً من التخفيف عن الأضرار البالغة التي تلحق بمزارعهم، وتقنى بسببها المحاصيل الزراعية، إلا أن المخاوف لم تزل ظاهرة بينهم ما دام الخطر الإفرنجي قريب منهم، ولكن استعادة القدس وغيرها من الأراضي الشامية سنة 583هـ/1187م، وما بعدها قد أثبتت صدور أهالي الشام قاطبة، ورفعت من معنوياتهم للعودة إلى ممارسة أعمالهم الزراعية كالمعتاد، بعد أن تركوا مزارعهم في الفترة التي سبقت معركة حطين بقليل، وبخاصة فلاحو مناطق مرج صفورية⁽¹³⁾ وطبرية، وما حولها من الأراضي الزراعية (ابن شداد 1992: 126-127؛ أبو الفداء 1907 ج3: 72-74).

فإذا كان هذا حال الفلاحين في الأراضي الواقعة تحت السيطرة الإسلامية، فكيف الأمر بالنسبة لأهالي المدن والقرى الشامية في الساحل، عكا وتبنين وغيرها من المدن والقرى التي كانت تحت سيطرة الإفرنج، الذين أجبروا على تأدية نصف غلات أراضيهم، ودفع ضريبة الجزية المقررة عليهم بدينار وخمسة قراريط⁽¹⁴⁾.

وكان الفلاح المسلم في المناطق الخاضعة للسيطرة الإفرنجية يعاني من جور السادة الإقطاعيين، الذين سلبوه الممتلكات، فحوّل الفلاح إلى عامل في أرضه حسب نظام السخرة المعمول به في أراضي فرسان الداوية⁽¹⁵⁾ بشكل كبير (ثيودريش 2003: 4). وكانت الأراضي الواقعة ما بين نابلس وبيت المقدس، قد تركت بأيدي الفلاحين المسلمين الذين يسكنون القرى القريبة من تلك الأراضي، فكانوا يحرثونها ويزرعونها، حيث عمل فيها المسلمون كمزارعين أو إجراء تارة أو ملاك صغار تارة أخرى (ثيودريش 2003: 42 - 43، 125).

(9) بيسان: مدينة في غور الأردن وتقع بين حوران وفلسطين، انظر: الحموي، معجم البلدان، مج1: 527.

(10) بانياس: مدينة الجولان من أعمال دمشق، وبها قلعة صليبية. انظر: ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أبي العباس، مسالك الإيصار في ممالك الأمصار؛ تحقيق: محمد خريسات وآخرون، مركز زايد للتراث، أبوظبي، ج3: 319.

(11) صيدا: مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال دمشق شرقي مدينة صور. انظر: الحموي، معجم البلدان، مج3: 436.

(12) الشقيف: قلعة حصينة قرب بانياس. انظر: الحموي، معجم البلدان، مج4: 290.

(13) مرج صفورية، كورة واسعة من أراضي بلاد الشام بالقرب من طبرية انظر: الحموي، معجم البلدان، مج3: 414.

(14) القيراط: معيار في الوزن والقياس اختلفت مقاديره باختلاف الأزمنة في الوزن يعادل أربع قمحات وعند البعض ثلاث، وفي القيراط هو جزء من أربع وعشرين، وهو من الفدان يساوي خمسة وسبعين ومائة من الأمتار. انظر: الخطيب معجم المصطلحات: 375.

(15) الداوية: هم فرسان المعبد أو فرسان الهيكل، وكانت من أخطر الوحدات العسكرية المشاركة في الحملات الصليبية. انظر: الحايك، منذر (2006)؛ العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية، دمشق: الأوائل للنشر والتوزيع، ط1: 215.

وقد حرمت الدولة الأيوبية عند التوقيع على ميثاق صلح الرملة سنة 588هـ/1192م (زكار 1993: 283-284)؛ انظر صلح الرملة ابن الأثير 2012 ج10: 218) وبعد وفاة صلاح الدين الأيوبي من الحصول على الإيرادات المالية المتأتية من تلك المزارع من جهة وتناقص الأيدي العاملة في الزراعة من جهة أخرى، الأمر الذي أثر في أحوال الدولة الاقتصادية.

وقد ساعد على تفاقم الأحوال الاقتصادية للفلاح الشامي، ما كانت تقوم به العساكر الإفرنجية من هدم وتدمير للخزانات والقنوات والسدود، والإقدام على قتل مواشي وأغنام الفلاحين لنشر حالة من الخوف والفرع بينهم بهدف افقار الفلاحين والحد من مصادر تمويل المقاومة الإسلامية وبالتالي اضعافها ضد مناطق السيطرة الإفرنجية في بلاد الشام (زكار 1993: 250، 286).

وقد أرغمت أعمال الإفرنج إلى نزوح الفلاحين من أراضيهم للنجاة بأرواحهم، الأمر الذي نتج عنه انهيار الزراعة، وفناء القرى بعد تشرد أبنائها في المدن، ولم يسلم الفلاح الذي أقام في المدن من أذى الإفرنج، إذ قام بدفع ثمن غاراتهم وهجماتهم على مدن الشام وقرىها وأحيائها طيلة احتلالهم للأراضي الشامية، وبخاصة فترة غياب حماية الدولة الأيوبية للأهالي في أعقاب وفاة السلطان صلاح الدين، الذي كان قد اهتم كثيرا بالدفاع عن الفلاحين، وكان قد أصدر أوامره عام 587هـ/1191م، إلى أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد، صاحب حمص بحماية الفلاحين، وأن يأخذ حذره من الإفرنج في طرابلس (العيني 2010 ج2: 174)، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أن للفلاح قيمة كبيرة في نظر قادة الدولة الأيوبية؛ إذ كانت تتطلب حماية الفلاح سلسلة من الإجراءات الاحترازية تمثلت في الهجوم على معاقل الإفرنج القريبة من القرى الزراعية، فقد هاجمهم أسد الدين شيركوه الثاني واستولى على بعض معاقلهم، وأخذ منها أربع مائة رأس من الخيل، ومائة من البقر، حيث تسببت هجمات الإفرنج بعد وفاة صلاح الدين بإتلاف المحاصيل الزراعية، وحرقتها بسبب غارات عساكرهم المستمرة على الأراضي الزراعية من جهة، وتعدّي قطاع الطرق ولصوص الإفرنج من جهة أخرى، كالذي حدث مع أهالي بيسان (العيني 2010 ج2: 175؛ الأوتاني 2007: 341) وقد داهم الحريق سنة 627هـ/1229م سهول الفلاحين ومزارعهم في قرية أفيون، إحدى قرى مدينة حماة، نتيجة الحرب مع الإفرنج (أبو الفداء، 1907 ج3: 146).

ولا شك في أن الهجمات الإفرنجية المتكررة على الأراضي الشامية تؤثر سلبًا في حياة المعاشين على الزراعة من الناحية الاقتصادية التي لا ظالما عانى بسبب تدهورها المجتمع الإسلامي بأسره في ظل السيطرة الإفرنجية على أجزاء من البلاد الشامية، دون أن يتخذ الحكام الأيوبيين في تلك المناطق أي تدابير أو إجراءات احترازية تقف في وجه تقدّم الغزاة الإفرنج نحوها، ومرّد ذلك يعود إلى عدم الاهتمام بالجوانب الحدودية المتاخمة لممتلكات الإفرنج داخل بلاد الشام من حيث شحنها بالحرّاس والمقاتلين وتزويدها بالآلات والمعدات الحربية، لأجل التصدي لغارات الإفرنج.

أثر الحروب الإقطاعية بين ملوك وأمراء الأيوبيين في الفلاح الشامي:

شهدت المناطق الشامية حالة من الفوضى وعدم الاستقرار لفترات طويلة، سيما في المدن والقرى الفلسطينية التي أصبحت مسرحًا للصراعات بين ورثة السلطان صلاح الدين وأخيه العادل وأبنائه من بعده، وكانت تلك الصراعات والحروب وما رافقها من عمليات حصار، تؤثر سلبًا في أهالي المناطق المحاصرة، أو أولئك الذين تتعرّض مدنهم وقراهم لمرور القوات العسكرية المتحاربة عبر أراضيهم، فكانت استراتيجية الحصار تضيق الخناق على الفلاحين، لما يترتب

عليها من ارتفاع الاسعار، وذلك ما حدث مع الفلاحين من أهالي دمشق جراء قساوة الحصار الذي فرضه السلطان العزيز عثمان على المدينة عام 590هـ/1193م، وقد رافق الحصار قطع الأنهار وعدم وصول المياه إلى المنازل كما وتم نهب المحاصيل الزراعية (ابن الأثير 2003 ج10: 234).

وارتفعت أسعار السلع الغذائية عام 595هـ/1197م في مدينة دمشق وما حولها جراء الحصار الذي فرضه الملك الظاهر غازي صاحب حلب وأخوه الملك الأفضل نور الدين علي على المدينة " فصار أهل دمشق في جهد من الغلاء " (سبط ابن الجوزي 2013 ج22: 70؛ المقرئزي 1997 ج1: 260-261). وقد بلغ "ثمن الغرارة" (16) الواحدة من الفصح ألفاً وستمئة درهم، وقنطار الدقيق تسعمائة والخبز كل أوقيتين (17) بدرهم، ورطل (18) اللحم بسبعة، وبيعت الأملاك بالدقيق، وأكلت القطط والكلاب والجيفات، ومات الناس في الطرقات، وعجزوا عن التغليف والتكفين والإقبار، فكانوا يلقون موتاهم في الآبار، حتى أنتنت المدينة وضجر الناس" (ابن كثير 1985 مج7، ج13: 178)، وكانت المعاناة قد انتقلت بسبب ارتفاع الأسعار إلى أهالي الساحل الشامي نتيجة هذا الحصار (المقرئزي 1997م ج1: 353)، وقد وصف المقرئزي آثار الحصار قائلاً: "وقد خربت البساتين والدور، وقطعت الأنهار، وأحرقت الغلال، وقلت الأقوات" (المقرئزي 1997 ج1: 263)، وكانت الأموال قد نفذت وهلكت الدواب جراء البرد الشديد الذي رافق الحصار مما انعكس على أهالي دمشق وما حولها من المدن والقرى الشامية (المقرئزي 1997 ج1: 363).

استمر أهالي دمشق في كرب شديد طيلة أيام الحصار، وبخاصة بعد نفاذ الأقوات وارتفاع أسعارها (ابن العديم 1996 ج2: 616-617)؛ مما دفع العادل إلى الاقتراض من أموال التجار لتقادي المصائب والتخفيف عن الأهالي، حيث يذكر ابن الفرات: "ونال أهل دمشق من الغلاء ما تمنوا معه الموت" (ابن الفرات 1970 مج4، ج2: 158-159، 161، 163)، وبخاصة بعد نفاذ الأقوات وانقطاع المياه عن أهل المدينة وقد شكل امتداد الحصار إلى سنة 596هـ/1199م، ضربة للبنية الاقتصادية لمدينة دمشق وما حولها من القرى، سيما بعد إقدام المحاصرين على قطع الأشجار، وتخريب المزارع والبساتين، وقطع مجاري الأنهار، وإحراق المحاصيل، الأمر الذي انعكس سلباً على الأهالي، حتى أشرف بعضهم على الهلاك بسبب انعدام الأقوات، وارتفاع الأسعار، فيقول أبوشامة: "وأحرق جميع ما هو خارج باب الجبانة من الفنادق والحوانيت، وأحرق النيرب وأبواب الطواحين وقطعت الأنهار، وانحرفت غلة حرستا" (19) في بيدارها" (أبوشامة 1974: 16؛ للمزيد انظر: سبط ابن الجوزي 2013 ج22: 71؛ ابن الفرات 1970 مج4، ج2: 169-171، 227).

وبالرغم من غنى الأراضي الدمشقية بالمحاصيل الزراعية وكثرة حقولها ومزارعها ذات التربة الخصبة والغنية بالمواد

(16) الغرارة: أصله وعاء من الخيش، يوضع فيه القمح ونحوه، وهو من المكاييل يعادل ثمانين مدًا، والمد عند أهل الشام يزن 18 كغم من الحنطة. انظر: الخطيب، معجم المصطلحات: 330.

(17) الوقية: تساوي 12/1 الرطل وتساوي في مصر 12 درهماً وفي بلاد الشام 50 درهماً أي 166 و154 غم. للمزيد، انظر: هنتس، فالتر (1970)؛ المكاييل والأوزان ترجمة كامل العسلي، هوتجن: 19-20.

(18) الرطل: معيار يوزن به، يختلف وزنه باختلاف البلاد، فهو في مصر اثنتا عشرة أوقية، وفي بعض بلاد الشام خمسة عشر أوقية. انظر: الخطيب، معجم المصطلحات: 210.

(19) حرستا، قرية كبيره عامره تقع وسط بساتين دمشق على الطريق المؤدي إلى حمص. انظر: الحموي: معجم البلدان، مج2:

العضوية، إلا أن الأهالي في دمشق وعلى مختلف طبقاتهم لم يستفيدوا منها، وذلك بسبب شدة الحصار المفروض على المدينة من جميع النواحي، حيث ازدادت حاجة الناس للأصناف الغذائية في الوقت التي بدأت فيه تنفذ من الأسواق والحوانيت، بسبب ظهور الفئة الفاسدة من بعض التجار التي استغلت الأحوال السيئة التي تمر بها المدينة، وذلك برفعهم لأسعار المنتجات الزراعية وغيرها لا سيما وقد أبتلي الدمشقيين بحصار آخر نفذه أبناء صلاح الدين الأيوبي سنة 597هـ/1199م معبرين عن سخطهم تجاه تسلم عمهم العادل حكم الدولة الأيوبية، الأمر الذي تسبب في إحداث القلاقل والاضطرابات التي أسهمت في تجويع الناس لعدم قدرتهم في الحصول على الطعام. (ابن الأثير 2003 ج10: 269). ومما سبق يتبين أن الأمراء الأيوبيين لم تدخل في حساباتهم الشخصية الأضرار التي تكبدها الفلاحين نتيجة الصراعات، التي جعلتهم جباةً، ودفعتهم إلى التهام الكلاب والقطط وغيرها هرباً من الموت، وبخاصة بعد أن طالت النيران الكثير من مخازن الحبوب والمحاصيل الزراعية، حيث انعدمت السلع الغذائية، وما فعله الملك العادل من اللجوء إلى كبار التجار لاقتراض الأموال من أجل تجاوز هذه المحنة لا يرفع المسؤولية عن عاتقه حيث كان من الأولى اخراج ما يملكه من أموال وغلال لأجل مجابهة المجاعة التي سببها حصار دمشق، وبخاصة أن العادل ترك ورائه من الأموال الكثير، حيث كان نصيب ابنه الكامل وحفيده العادل الثاني منها نحو ستة ملايين دينار، بالإضافة إلى عشرين مليون درهم، والمعظم عيسى حصل على 700 ألف دينار. (ابن شداد 1992: 43-46؛ أبو الفداء 1907 ج3: 214؛ المقرئ 1997 ج1: 312).

وقد فرض السلطان الكامل الحصار على مدينة دمشق سنة 626هـ/1228م، وقطع عنهم الأنهار، وقامت عساكره بنهب الغلات والمحاصيل وقد أثرت الصراعات التي اندلعت بين أفراد الأسرة الأيوبية الحاكمة في البلدان الشامية والديار المصرية، على المجتمع الشامي بكافة طبقاته وانعكست آثاره على حياتهم، فانشغل أبنائه عن مزاولة أعمالهم الرسمية والمهنية وحتى الدينية، إذ لم يذهب أحد من الشاميين لأداء مناسك الحج في سنة 626هـ/1228م (ابن واصل 1960 ج3: 106-107؛ أبو الفداء 1907 ج3: 157-158).

وأسهم الحصار الذي فرضه الملك الصالح إسماعيل بن العادل⁽²⁰⁾ على دمشق سنة 643هـ/1245م في رفع أسعار المنتجات الغذائية، مما تسبب في إيذاء سكانها على اختلاف فئاتهم الاجتماعية، "وغلّت بها الأقوات، وقاسى أهلها شدة عظيمة لم يسمع بمثها" (أبو الفداء 1907 ج3: 137؛ العيني 2010 ج2: 225). ويقول سبط بن الجوزي: "فيها حضر معين الدين ابن الشيخ⁽²¹⁾ والخورزمية⁽²²⁾ دمشق وضائقوها، وقطعت على الناس الطرق،... وزحف الخوارزمية

(20) الصالح إسماعيل: إسماعيل بن محمد بن أيوب، الملك الصالح أبو الخيش، صاحب بعلبك وبصرى، توفي سنة (648هـ/1250م)، انظر: الصفدي (ت764هـ/1362م)، صلاح الدين خليل بن أيبك (2003)؛ الوافي بالوفيات؛ تحقيق

أحمد الأرنؤوط، ج9، بيروت: دار إحياء التراث العربي: 129.

(21) معين الدين الحسن ابن شيخ الشيوخ صدر الدين محمد بن عمر بن حمويه، توفي بدمشق عام 643هـ، وهو يعمل نائباً للسلطنة، النويري 2004 ج29: 203.

(22) الخوارزمية، نشأة الدولة الخوارزمية في إقليم خوارزم في أحضان الدولة السلجوقية، وتحت مظلة الخلافة العباسية؛ حيث كان أنوشكين مؤسسها من أبرز قادة السلاجقة، وكان قد نال ثقة ملكشاه بن ألب أرسلان فولاه إقليم خوارزم حتى وفاته عام 490هـ، فخلفه ابنه قطب الدين محمد خوارزم حتى عام 521هـ، وأخذت قوة الدولة الخوارزمية تزداد في الوقت الذي بدأ الضعف في جسم الدولة السلجوقية، فسيطروا على البلاد وتوسعت دولتهم إلى كرمان ومكران وامتد نفوذهم إلى أفغانستان

من كل ناحية ورموا النيران في قصر حجاج، وبعث اسماعيل الززاقين فأحرقوا جوسق العادل، ومنه إلى العقبية بأسرها، ونهبت أموال الناس، ورموا على الطرق واحترق بعضهم، وجرى على الناس ما لم يجر في بلد آخر". (سبط ابن الجوزي 2013 ج22: 287-388)؛ مما زاد الأمر سوءاً قيام فئة ظالمة من كبار التجار، باستغلال الظروف العصيبة وحاجة الناس الماسة للطعام، من خلال احتكارهم السلع الضرورية، والتلاعب في أقوات الناس، للحصول على الأرباح عن طريق رفع الأسعار، الأمر الذي نتج عنه تفشي المخاوف بين جموع الفلاحين، فازداد إقبالهم على شراء الغلال قبل نفاذها، وتزاحموا بكثرة على أبواب الأفران والحوانيت المخصصة لبيع الغلال (سبط ابن الجوزي 2013 ج22: 387-388).

ولم يكن الدمشقيون وحدهم من ذاق مرارة الحروب الناتجة عن الخلافات والصراعات التي دارت رحاها بين الأمراء الأيوبيين، والقادة الطامعين ببلاد الشام فالعساكر الموصلية المرابطة في حلب عندما شعرت بخطر السلطان صلاح الدين القادم من مصر لأخذ حلب سنة 578هـ/1182م، قامت بشن الغارات والهجمات على المناطق القريبة من حلب، كحصن بالس⁽²³⁾ والقرى المنتشرة على شاطئ نهر الفرات، منبج وقلعة نجم وسروج، الأمر الذي أحدث دماراً وخراباً في تلك المناطق، شمل جميع السكان على اختلاف فئاتهم وطبقاتهم وبخاصة الفلاحين (ابن العديم 1996 ج2: 549-550)، وتعرضت مدينة طرابلس هي الأخرى للحريق الذي نتج عنه موت الكثير من الحيوانات واحترق أشجار الزيتون، واستمر الحريق مشتتاً حتى أطفئ بماء الأمطار (ابن كثير 1985 مج7، ج13: 268؛ المقرئ 1997 ج1: 231، 238).

وكانت مدينة الكرك وما حولها من القرى قد تعرضت لعمليات السلب والنهب، وذلك عندما اجتاحتها عساكر عز الدين فرخشاه نائب صلاح الدين على دمشق (ابن الأثير 2003 ج10: 127-128؛ العيني 2010 ج2: 106). وكان الفلاحون في القرى الشامية الخاضعة للسيطرة الإفرنجية يتعرضون للسلب والنهب، ويدفعون ضريبة غارات العساكر الإسلامية على المعاقل الإفرنجية كالذي جرى مع أهالي قرية الفولة⁽²⁴⁾ وما حولها من الضياع وقرى بيسان ونابلس وجنين، عندما أغارت عساكر السلطان صلاح الدين عليها في سنتي 579هـ و580هـ/1183 و1184 (ابن العديم 1996 ج2: 560، 565).

وأسهم خراب المدن والقرى في نشر الخوف بين الناس، خاصة لدى الفئات البسيطة كالفلاحين والفقراء ومن على ساكنتهم، وقد أربعهم المنظر المتمثل بكبر حجم العساكر وخروجها للقاء العدو في أرض قد تكون المكان الذي يعيش فيه الفلاحين أو قريبة منه، الأمر الذي أدى إلى انتشار القلق بين الأهالي على اختلاف طبقاتهم، بعد مشاهدتهم ما تلحقه العساكر من أضرار عند مرورها عبر أراضيهم وأماكن سكنهم، فكانت مخاوفهم تزداد الأمر الذي يدفعهم إلى بيع أملاكهم وترك قرأهم بحثاً عن الأمن والأمان. وهذا ما حدث سنة 587هـ/1191م عندما أمر صلاح الدين بتخريب مدينة عسقلان، حيث ارتفعت أصوات السكان بالبكاء والوعويل، واشتد الحزن على مفارقة الديار وفقدان الممتلكات وبيعها

حتى امتدت حدودها من العراق غرباً إلى حدود الهند شرقاً ومن شمال بحر قزوين إلى الخليج العربي والمحيط الهندي جنوباً. للتوسع عن الخوارزمية، انظر: حمدي (1949)، الدولة الخوارزمية والمغول، القاهرة: دار الفكر؛ سليم (2000) الأتراك الخوارزميون، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

⁽²³⁾ بالس: بلد بالشام بين حلب. انظر: الحموي، معجم البلدان، مج1: 328.

⁽²⁴⁾ الفولة: بلدة بفلسطين من نواحي الشام. انظر: العيني، عقد الجمان، ج2، هامش (4): 69.

بأبخس الأثمان، حيث بيع ما يساوي ثمنه عشرة دراهم بدرهم واحد، كما اضطر الفلاحون إلى بيع ما يقتنون من الطيور الداجنة، فبيع كل طير دجاج بدرهم واحد، وذلك من أجل الحصول على أجور النقل التي ارتفعت كثيرًا، الأمر الذي ترتب عليه مضاعفة الديون على الفلاحين (ابن شداد 1992: 280-281؛ العيني 2010 ج2: 203). ويضيف العيني على معاناة أهالي عسقلان، قائلاً: " واختبئ البلد، وخرج أهله إلى العسكر بذراريهم ونسائهم خشية أن يهاجم الإفرنج البلد، وبذلوا في الكرى أضعاف ما تساوي، فقوم إلى مصر، وقوم إلى الشام، وقوم يمشون لم يقع لهم كراء، وجرت أمور كثيرة وبلية عظيمة لعلها لم يكن مثلها، وبات الناس على أشد حال من التعب والنصب" (العيني 2010 ج2: 203). وهذا الإجراء الذي أقدم السلطان عليه لم يكن بدوافع شخصية ولا انتقامًا من السكان، وإنما كان لأجل المصلحة العامة ومواجهة الإفرنج في بلاد الشام، والواقع انه لم يكن في مخيلة صلاح الدين إلحاق الأذى بالسكان، لانه كان قد أسهم منذ سنة 570هـ/1174م في التخفيف عن كاهل الشاميين وخاصة الفلاحين، وذلك بتوزيعه الأموال وإيقاف دفع الضرائب والمكوس⁽²⁵⁾ عليهم، وبتّ روح الطمأنينة في نفوسهم، وأزال المنكرات والقبايح التي ظهرت في بلاد الشام بعد وفاة السلطان نور الدين زنكي (ابن الأثير 2003 ج10: 65، 66-86؛ سبط بن الجوزي 2013 ج21: 228؛ أبو شامة 1997 ج2: 340، 344؛ المقرئ 1997 ج1: 167-168، 171-172، 177، 193).

وعانى أهالي حلب كثيرًا خلال الفترة الواقعة بين عامي 571-579هـ/1175-1183م، وذلك منذ أن فرض السلطان صلاح الدين الحصار على مدينتهم، وكان قد تشدد بجباية الأموال من سكانها، وبذلك يقول أبو شامة: " ولما فرغ السلطان من أمر عزاز⁽²⁶⁾ حقد على من بحلب لما فعلوه من أمر الحشيشية⁽²⁷⁾، فسار حتى نزل على حلب وضربت خيمته على رأس الياروقية فوق جبل جوشن وجبى أموالها وضيق على أهلها"، وبقيت المعاناة ملازمة لأهلها وأهالي حارم وعين تاب⁽²⁸⁾ وتل خالد⁽²⁹⁾ من الفلاحين وغيرهم من الفئات العامة، الذين قاموا بحماية قرانهم أثناء الحصار بأنفسهم وأموالهم التي أنفقوها من أجل الحفاظ عليها وإنقاذها من الحصار، وقد عرف عن الحلبيين أنهم يقاتلون بدون رواتب أو أموال، ولكن مع ذلك انتشر بينهم الخوف أثناء القتال، حتى استطاع صلاح الدين السيطرة عليها سنة 579هـ/1183م (المقرئ 1997 ج1: 168، 173، 175؛ سبط بن الجوزي 2013 ج21: 236؛ أبو شامة 1997 ج2: 348، 413؛ ابن العديم 1996 ج2: 522، 527، 552-555؛ ابن العماد الحنبلي 1996: 41). والأمر يختلف بالنسبة لموقف السلطان صلاح الدين من مدينة حلب؛ إذ إن استخدامه القوة ضد القاطنين في داخلها

⁽²⁵⁾ المكوس: مفردا مكس، وهي ضريبة يأخذها المكاس ممن يدخل البلد من التجار والفلاحين على البضائع القادمة بها. انظر: الخطيب، معجم المصطلحات: 406.

⁽²⁶⁾ عزاز بلدة تقع شمال حلب مشهورة بقلعتها وصلابة أرضها ولها رستاق واسع ومياها عذبة. انظر: الحموي، معجم البلدان، مج4، ص118.

⁽²⁷⁾ طائفة الحشيشية أو الحشاشون واتخذوا لأنفسهم اسم الدعوة الجديدة، ومؤسسها الحسن بن الصباح، وهي طائفة اسماعلية نزارية انفصلت أواخر القرن الخامس الهجري عن الدولة الفاطمية، كانت معاقلم بلاد فارس والشام وكانت قد اتخذت من القلاع الحصينة معقلا لها، وارتكزت أهدافها العسكرية على الاغتيالات التي يقوم بها فدائيوهم. للتوسع عن الحشاشي. انظر برنارد لويس (2006)؛ الحشاشون، تعريب محمد العزب، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط2.

⁽²⁸⁾ عين تاب: قلعة حصينة بين حلب وأنطاكية. انظر: الحموي، معجم البلدان، مج4: 176.

⁽²⁹⁾ تل خالد: قلعة من نواحي حلب. انظر: الحموي، معجم البلدان، مج2: 41.

لم يكن إلا من أجل ادخالها ضمن مشروعه الحدودي الذي يضم الديار المصرية والبلاد الشامية وما جاورها من البلدان لإخضاعها تحت الحكم الأيوبي، خاصة أن أمرائها هم من شقّ عصا الطاعة ورفض الدخول في صف السلطان، وأشعلوا فتيل الحرب رافضين التفاوض أو الاستسلام.

إن ما كان يعانيه الفلاح الشامي بسبب الاضطرابات الداخلية، والصراعات ما بين الأمراء الأيوبيين حول امتلاك الإقطاعات في بلاد الشام، بعد وفاة صلاح الدين، جلبت الويلات لسكان المدن والقرى والأرياف جزاء قطع الأشجار وسد الأنهار وحرق أكواخ الفلاحين ودورهم.

وكانت الخلافات التي نشبت ما بين السلطان العزيز عثمان صاحب مصر وأخيه الملك الأفضل صاحب دمشق، قد نتج عنها دخول العساكر المصرية إلى مدينة دمشق، والقيام بنهب مزارعها وبساتينها في سنوات 590هـ و591هـ/1193م و1194م. وكثيراً ما كان يشارك الأهالي ومن بينهم الفلاحين إلى جانب أمير الإقطاع في حروبه، ضد اخوانه أو أبناء العمومة من أصحاب الإقطاعات الأخرى كالذي حدث مع الملك الأفضل صاحب دمشق، إذ وقف أهالي المدينة إلى جانبه في كسر الحصار الذي فرضه السلطان العزيز عثمان على مدينتهم، وقد نتج عن شدة الحصار تعرّض أهالي دمشق عامةً وسكان الكسوة⁽³⁰⁾ خاصةً للأذى والمعاناة نتيجة إقدام عساكر السلطان على قطع الأنهار ونهب المحاصيل والثمار، مما أثر سلباً في أحوال العامة المعيشية، وتعرّض سكان دمشق أيضاً إلى هزة اقتصادية أخرى بعد أن فرض الملك الأفضل الحصار على المدينة سنة 595هـ/1198م، حيث كان قد أخرج منها على يد أخيه السلطان العزيز عثمان، وعاد إليها بعساكره ففرض عليها الحصار وأمر بقطع الأنهار ونهب الثمار، هذا فضلاً عن انعدام الميرة في المدينة فلا خبز ولا ماء نتيجة الحصار المفروض عليها. وكان قد نتج عن الحصار إحراق النيرب وأبواب الطواحين، وقد بدأ الخراب بالقرى القريبة من المدينة، والواقعة على الطريق الذي سلكته العساكر التي كانت تشتهر بكثرة مزارعها وضياعها. (الأصفهاني 2004: 418، 422؛ البنداري 1979: 24-25؛ المنصوري 1993: 3؛ ابن الاثير 2003 ج10: 257).

ما ذكرته المصادر الإسلامية عن سوء الأحوال في دمشق يؤكد أن المعاناة امتدت إلى أهالي القرى التابعة لدمشق، وما أوردته من الأحداث المؤلمة التي تعرضت لها معظم البلدان الشامية في الفترة التي أعقبت وفاة السلطان صلاح الدين سنة 589هـ/1193م واستمرت حتى سنة 595هـ/1198م، تبين أن فترة السلطان العزيز عثمان في حكم الدولة الأيوبية، هي من أكثر الفترات التاريخية الأيوبية التي شهدت صراعات عسكرية أيوبية أيوبية أسهمت وبشكل كبير في خلخلة أركان المجتمع الشامي وتقويض دعائمه في الجانب الاقتصادي.

وتعرّضت مناطق معرة النعمان ومنبج⁽³¹⁾ وأفاميا وكفر طاب وحماة وحمص إلى النهب من قبل عساكر الملك الأفضل نور الدين علي وأخيه الظاهر غازي سنة 597هـ/1200م. وما رافق ذلك من آثار مدمرة خلفها الزلزال الذي دكّ معظم الديار المصرية وانتقل إلى الشام فألحق ضرراً كبيراً بأهالي دمشق وحمص وحلب وحماة خاصة بعد أن هدمت منازلهم وهربوا نحو الميادين فازدادت معاناتهم كثيراً، سيما بعد نضوب مصادر المياه وانعدام السلع الغذائية نتيجة الخراب والدمار الذي لحق بالأراضي الزراعية ومحاصيلها. (ابن العديم 1996 ج2: 618-619، 621؛ أبو الفدا

(30) الكسوة: قرية على الطريق بين دمشق ومصر. انظر: الحموي، معجم البلدان، مج4: 461.

(31) منبج: مدينة كبيرة ذات خيرات واسعة بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ. انظر: الحموي، معجم

البلدان، مج 5: 205.

1907ج2: 214؛ المقريري 1997ج1: 312).

وتستمر معاناة الفلاح في بلاد الشام من تلك الحروب، والهجمات، سيما في القرى القريبة من الطرق الرئيسية التي تسلكها الجيوش؛ إذ واجهت هذه القرى أعمال الحرق والتدمير، إضافة إلى ما تعرضت له من أضرار بشرية واقتصادية، تمثلت في قتل كثير من سكانها، والإقدام على قطع أشجارها وحرق محاصيلها (سبط ابن الجوزي 2013م، ج22: 91؛ أبو شامة 1997 ج4: 246، 249، 252، 260، 262).

وكثيراً ما كان الفلاحون وسكان تلك المناطق يتعرضون إلى عمليات السلب والنهب من قبل العساكر الإسلامية المارة عبر أراضيها، فيأخذون ما يأكلون، وتآكل دوابهم من القرى والبساتين والكروم والزروع (ابن كثير 1985 مج7، ج13: 78، 80، 83، 84، 85، 88، 91).

وعندما حاصر الملك العادل بن نجم الدين أيوب مدينة دمشق، قامت عساكره بتخريب البساتين والدور، وعملت على إحراق الغلال والمحاصيل، وقد أثر هذا سلبيًا في حياة الفلاحين حيث كانوا ينتظرون موسم الحصاد لجني الثمار، والاستفادة منها في تأمين احتياجاتهم على مدار السنة من الطعام واللباس، لهم ولأطفالهم (المقريري 1997 ج1: 263).

وقد تعرضت مدينة طرابلس إلى حريق نتج عنه موت الكثير من حيوانات الفلاحين ومحاصيلهم الزراعية وأشجار الزيتون، وقد استمر الحريق مشتعلًا حتى أطفئ بماء الأمطار (المقريري 1997 ج1: 231، 238؛ ابن كثير 1985 مج7، ج13: 268)، وكان المعظم عيسى قد داهم قرى طرابلس سنة 611هـ/1214م، حيث قامت عساكره بنهبها وتخريبها بعد أن صادروا أموال الفلاحين وغيرهم، ويذكر ابن العديم ذلك: "قلم يترك في بلدها قرية إلا نهبها وخربها، واستاق الغنائم والأسرى" (ابن العديم 1996: 636).

لم يكن الأمر يقتصر على معاناة أهالي دمشق وما حولها من القرى جزاء الصراعات والحروب الداخلية، وإنما واجه سكان المناطق الشامية الصعاب التي أحدثها الحكام الأيوبيين، حيث شهد عام 616هـ/1219م، موت كثير من أهالي القدس بعد تخريبها على يد الملك المعظم عيسى، بداعي الخوف من احتلالها من قبل الإفرنج، ومات خلق كثير من الجوع والعطش، ونهب ما كان لهم، وقد بيع قنطار الزيت بعشرة دراهم (ابن الأثير 2003 ج10: 462، 468-469؛ سبط ابن الجوزي 2013 ج22: 300-301؛ النويري 2004 ج29: 60)، والرطل من النحاس بنصف الدرهم. وكان المعظم عيسى قد أقدم على نهب محاصيل أهالي بلاد المعرة سنة 619هـ/1222م، ومحاصيل حماة سنة 620هـ/1223م بعد أن فرض على سكانها الحصار (ابن العديم 1996 ج2: 654-655) وكانت قد انتشرت المخاوف بين أهالي دمشق وحلب وحماة نتيجة الخلاف الذي شب بين السلطان الكامل وأشقائه المعظم عيسى والأشرف موسى سنة 623هـ/1226م (ابن الأثير 2003 ج10: 462، 468-469؛ سبط ابن الجوزي 2013 ج22: 300-301؛ النويري 2004 ج29: 60).

لم يكن عهد أبناء السلطان العادل سيف الدين أبوبكر أفضل حال من أبناء العمومة من أبناء صلاح الدين المؤسس، إذ شهدت الساحة الشامية بعد وفاة العادل سنة 615هـ/1218م، صراعات دموية سببتها تلك الخلافات التي نشبت بين أبناء العادل حول حياة الإقطاعات الكبيرة، وبالأخص إقطاع دمشق وما يتبعها من أعمال، فلم يأل والسلطان الكامل محمد منذ توليه مقاليد الحكم في الدولة الأيوبية، جهدًا في السيطرة على دمشق والعمل كذلك على إقصاء أخيه المعظم عيسى المنافس الحقيقي له في الحكم، ولم يصرف السلطان الكامل نظره إطلاقًا عن فكرة ضم دمشق إلى أملاكه في الديار المصرية حتى بعد وفاة أخيه المعظم عيسى، وإنما سعى بدوره إلى التحالف مع الإفرنج لأجل الفوز بدمشق التي

إصبحت ضمن أملاك ابن أخيه الناصر داود، فاتصل الكامل بالإمبراطور الروماني فردريك الثاني، وسلّمه مفاتيح القدس بمقتضى معاهدة يافا سنة 626هـ/1229م، مقابل الوقوف إلى جانبه في حربه ضد الناصر داود (ابن الأثير 2003 ج10: 481-483، ابن العميد 1996: 15)، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أن الأيوبيين لم يهتموا بما ستؤول إليه أحوال السكان في البلدان الشامية قبل التفكير في الدخول بتلك الحروب التي عانى كثيرًا بسببها الشاميين.

وقد جرت العادة أن يترك الفلاحين وأصحاب الحرف والصنائع أعمالهم، إذا ما تعرضت مناطقهم للحصار، حيث يستعدون للاختباء داخل الأسوار، كما حدث لأهالي مدينة دمشق وحماة عندما حاصرهما السلطان الكامل سنة 626هـ/1228م، حيث يقول ابن الأثير: "اشتد الحصار وعظم الخطب على أهل البلد وبلغت القلوب الحناجر" (ابن الأثير 2002 ج9: 379)

وجد أهالي حماة، لا سيّما فلاحو المناطق والقرى الممتدة ما بين أفامية وحماة، أنفسهم في كرب بعد الحصار الذي فرضه الملك الظاهر غازي عليها، ومرور عساكره في الأراضي والمزارع والبساتين (ابن العميد 1996: 21؛ أبو الفداء 1907 ج3: 99) كما اشتدت معاناة أهالي بعلبك بسبب الحصار الذي فرضه الأشرف موسى عليها سنة 627هـ/1229م، حتى اضطر صاحبها الأجد بهرام شاه على تسليمها لابن عمه الملك الأشرف، وربما كان استسلامه لعجزه عن رفع الحصار ورأفة بأهلها، ولشعوره بعدم القدرة على حمايتهم إذا ما دخلها الأشرف موسى بالقوة. ويذكر ابن العميد حول الفوضى التي اندلعت في دمشق سنة 635هـ/1237م وذلك نتيجة حصار السلطان الكامل لها: "وفي سنة خمس وثلثين وستمئة تجهز السلطان الكامل وخرج من الديار المصرية بعساكره ليأخذ دمشق فلما وصل إليها قاتلها قتالاً شديداً". (ابن العميد 1996: 20-21؛ للمزيد، انظر: ابن العديم 1988: 493).

وتكررت معاناة أهالي حماة بعد وفاة السلطان الكامل سنة 635هـ/123م خاصة أهالي القرى والمناطق الممتدة ما بين سلمية⁽³²⁾ وحماة بعد أن حلّت بهم كارثة طبيعية بفعل بشري، أضرت كثيرًا بالعامّة على اختلاف فئاتها الاجتماعية، وذلك بعد أن أمر صاحب حمص بقطع القناة الواصلة ما بين سلمية وحماة، الأمر الذي تسبب في إتلاف المزروعات ونشأف البساتين، وازدادت الأحوال سوءًا بقطع مياه نهر العاصي عن أهالي حماة، مما نتج عنه إيقاف العمل في النوايعر والطواحين المستخدمة في طحن الحبوب التي تشكل مصدرًا أساسيًا لطعام الفلاحين وقد استمرت هذه المعاناة حتى منتصف سنة 636هـ/1238م (أبو الفداء 1907 ج3: 162-163؛ ابن العميد 1996: 22؛ العيني 2010 ج4: 250).

وتتوالى الأحداث المؤلمة على الشاميين بهجوم عسكري آخر شنته عساكر الملك الصالح اسماعيل ابن العادل على دمشق وما حولها وذلك في سنة 637هـ/1239م، وقد ساندته المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص، حيث استباحت العساكر الغازية سكان المدينة على اختلاف طبقاتهم وانتهكوا حرمتهم فانتابهم الخوف والقلق على مدار الأيام التي أعقبت سقوطها بيد الصالح اسماعيل. (الدوادري 1972 ج7: 332).

وقد توالى الخلافات بين أفراد الأسرة الأيوبية ونوابهم في البلاد الشامية، فلم يكون السلطان العادل الثاني أفضل حالًا من أبيه الكامل، حيث سار على نهج والده في التشدد على الشام وأهله، وذلك من خلال ارسال العساكر لتأديب

(32) سَلْمِيَّة: بليدة في ناحية البرية من أعمال حماة، وكانت من أعمال حمص. انظر: الحموي، معجم البلدان، مج 3: 240.

نوابه في دمشق وحمص، ولا سيما بعد تسليم الجواد يونس إقطاع دمشق إلى الصالح نجم الدين أيوب في سنة 636هـ/1238م، وكان انتقال الإمارات الشامية من حاكم إلى آخر كان يسبب الخوف لدى سكانها، وقد تكالبت الأحداث على الدمشقيين في ظل هذه الظروف السيئة التي أحاطت بهم، إذ خضعت دمشق وما حولها من القرى والمناطق إلى حصار فرضه الصالح اسماعيل سنة 637هـ/1239م، حيث ألحق الضرر الكبير بالمنطقة، وتزايدت المخاوف لدى الأهالي مما جعلهم يحتمون خلف أبواب المنازل تاركين أشغالهم وأعمالهم في الفلاحة وغيرها من المهن والأعمال المرتبطة بأبناء الطبقة العامة (الدوادري 1972 ج: 7؛ 332؛ أبو الفداء 1907 ج: 3؛ 164).

إن استمرار الحروب ما بين ملوك وأمراء الأيوبيين للتوسع في ملكية الإقطاعات في بلاد الشام قد ازدادت خلال السنوات 642-646هـ/1244-1248م، حيث هاجمت العساكر الخوارزمية حليفة الصالح أيوب مناطق حماة وحمص وبعبك ونهبوا وقتلوا وعاثوا في بلاد الساحل ثم دخلوا القدس ونهبوها، وفي سنة 644هـ/1246م، وما تلاها من حصار فرضه السلطان الصالح أيوب (الزبيدي 1969: 37؛ سبط بن الجوزي 2013 ج: 22؛ 364؛ ابن الأثير 2003 ج: 9؛ 379؛ ابن واصل 1960 ج: 3؛ 105-106؛ ابن العميد د.ت: 24، 28) على مدن: دمشق وحمص وبعبك وعجلون والكرك وقرهما، وإقدام عساكره على تخريب المزارع والضياع، وقد أثر ذلك كثيرًا على مجرى حياة البسطاء من أهالي تلك المناطق أمثال الفلاحين ومن هم في مستواهم، والذين يعتمدون على ما تصنعه الأيدي وتقدمه الجهود المبذولة من إنتاج يؤمن مصدر رزق لهم ولأسرهم. فالحروب كانت سببًا في ابتعادهم عن أعمالهم، واختبائهم في المنازل خوفًا على أرواحهم (سبط بن الجوزي 2013 ج: 22؛ 404، 396؛ أبو الفداء 1907 ج: 3؛ 172-177؛ ابن العميد د.ت: 33-35).

وأولئك الذين كانت لهم الإقطاعات، فقد كان الإقطاع العسكري وبالأعلى عليهم منذ اتباعه زمن صلاح الدين، إذ إنه كان يحول بين المقاتلين وبين بقائهم تحت السلاح زمنًا طويلًا وبخاصة في مواسم الفلاحة، وجني المحاصيل (أبو شامة 1974: 268-269، 271-273، 276؛ الأوتاني 2007: 230).

ويتضح مما سبق أن أكثر الفترات التاريخية التي ألحقت الضرر بأهالي المناطق الشامية خلال العصر الأيوبي، تلك الفترة التي أعقبت وفاة السلطان صلاح الدين وامتدت حتى نهاية آخر عهد السلاطين الأيوبيين، سنة 648هـ/1250م، ففي الفترة التي تسلّم فيها الصالح أيوب مقاليد الحكم بعد اقصائه لأخيه العادل الثاني عن العرش سنة 637هـ/1239م، عانى الشاميين في أغلب المناطق نتيجة اندلاع الصراعات وتجدها بين المسلمين والإفرنج من جهة، وبين الأمراء الأيوبيين وتحالفاتهم مع العساكر الخوارزمية من جهة أخرى، إذ ألقت تلك الحروب والصراعات الدموية بوبالها على المجتمع الشامي، فأحدثت الخراب اقتصاديًا واجتماعيًا.

أثر هجمات القبائل العربية البدوية والعساكر الخوارزمية في الفلاح الشامي:

كانت القبائل العربية القاطنة في مناطق فلسطين وشرقي الأردن تشكل مصدر إزعاج دائم لأهالي تلك المناطق، بسبب الهجمات المتكررة على القرى والمزارع، مما دفع صلاح الدين سنة 568هـ/1172م إلى القيام بحملات عسكرية لإبعادهم عن المنطقة والحيلولة دون مساعدتهم الإفرنج بالعمل كأدلاء لهم (البنداري 1979: 65؛ الصفدي 2003: 143، 137؛ ابن تغري بردي 1992 ج: 6؛ 322-329، 323؛ ابن العماد الحنبلي 1996: 375، 36). وحينما أغارت

عساكر الخوارزمية سنة 637هـ/1239م على قلعة جعبر⁽³³⁾ وحصن بالس⁽³⁴⁾، نهبت تلك المناطق، وبعض قرى مدينة حلب ومنبج، وقتلت كثيراً من سكانها بعد أن ارتكبوا من المعاصي والزنا والفواحش ما تقشعر له الأبدان. (سبط ابن الجوزي 2013 ج22: 372؛ أبو الفداء 1907 ج3: 167؛ المقرئ 1997 ج1: 406).

ولم تهدأ الأحوال في حلب، سنة 638هـ/1240م بسبب ما حل في القرى الواقعة بين وادي بزاعا⁽³⁵⁾ والمدينة، حيث ارتكبت تحالف القبائل العربية البدوية مع العساكر الخوارزمية جرائم بشعة في حق أهالي قرى البيرة⁽³⁶⁾ وربانا وتلفيتا⁽³⁷⁾ وأعرابيا وفرقارين وحيلان⁽³⁸⁾، فأسروا وغنموا منها الكثير، ثم شنوا غارات على قرى حلب مثل تل باشر وبرج الرصاص⁽³⁹⁾ وجبل سمعان⁽⁴⁰⁾ وبلد الحوار وطرف العنق، واستولوا على مواشي الفلاحين وأموالهم وأمتعتهم وحریمهم وصبيانهم. (سبط ابن الجوزي 2013 ج22: 372-375؛ ابن العديم 1996 ج2: 696-697).

واقترفت العساكر الخوارزمية في سنة 641هـ/1243م مجازر أخرى في حق أهالي بعلبك وغوطة دمشق وغزة (سبط ابن الجوزي 2013 ج22: 378). وتكرر الحال مع أهالي دمشق عندما فرضوا عليها الحصار سنة 643هـ/1245م، وضيقوا عليهم في الدخول والخروج، ثم انتقموا منهم بعد دخولهم المدينة، ويذكر سبط ابن الجوزي في ذلك: "ونهبت أموال الناس، ورموا على الطرقات، واحترق بعضهم، وجرى على الناس ما لم يجر في بلد آخر" (سبط ابن الجوزي 2013م، ج22، ص 388) وذاق أهالي مناطق حوران والبلقاء ونابلس طعم المعاناة بنزول العساكر الخوارزمية في أراضيها سنة 644هـ/1246م. (سبط ابن الجوزي 2013 ج22: 396).

هذه الصورة تعبر عن مدى المعاناة التي حلت بالشاميين في بعض المدن والقرى، وكانت أكثر وقعاً في صفوف العامة من الفلاحين وأصحاب الحرف والفقراء، نتيجة الهجمات المتكررة والحروب التي تعرضت لها مناطقهم بما فيها الحقول والمزارع والبساتين، خاصة أن مصدر غذاء الفلاحين هو ما تنتجه تلك الأراضي الزراعية من المحاصيل التي تتعرض بين الحين والآخر إلى عمليات الحرق والسلب والنهب.

والمنتبج لأحداث هذه الفترة التاريخية والمتصلة بعهد السلطان الصالح أيوب، وما تخللها من صراعات وحروب قامت أولاً بين أبناء السلطان الكامل، حيث تنازعا على العرش، وشكّل كل منهم التحالفات العسكرية ضد بعضهم البعض، ثم تجدد الصراع الإسلامي الإفرنجي في المنطقة الشامية وجرى انضمام بعض أمراء الدولة الأيوبية إلى جانب الإفرنج، كل ذلك جعل المنطقة عرضة للدمار والخراب ومسرّحاً لتصفية الحسابات ما بين الأمراء الأيوبيين ابتداءً من النزاع الذي حدث بين العادل الثاني وأخيه الصالح أيوب وبتحريض من عمهم الصالح اسماعيل، الذي أشعل نار الفتنة بين

(33) جَعْبَر: قلعة على الفرات بين بالس والرقعة قرب صفيين. انظر: الحموي، معجم البلدان، مج 2: 141-142.

(34) بالس: بلدة بين الشام حلب والرقعة. انظر: الحموي، معجم البلدان، مج 1: 328.

(35) بزاعا، بلدة من أعمال حلب تقع في وادي البطنان بين منبج وحلب تكثر فيها المياه والأسواق. انظر: الحموي، معجم البلدان، مج 1: 409.

(36) البيرة: بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية. انظر: الحموي، معجم البلدان، مج 1: 526.

(37) تلفيتا: من قرى سَنَيْر من أعمال دمشق. انظر: الحموي، معجم البلدان، مج 2: 42.

(38) حَيْلان: من قرى حلب. انظر: الحموي، معجم البلدان، مج 2: 332.

(39) برج الرصاص: قلعة من أعمال حلب قرب انطاكية. انظر: الحموي، معجم البلدان، مج 1: 373.

(40) جبل سمعان: جبل في ديار بني تميم في بلاد الشام. انظر: الحموي، معجم البلدان، مج 3: 251.

الأخوين من أجل تحقيق مصالحه وأطماعه الشخصية في الحصول على إقطاع دمشق وما يتبعه من أعمال (المقريزي 1997 ج1: 395؛ ابن واصل 1960 ج5: 220-221)، وانتهاه بالصراع الذي دار ما بين الصالح أيوب سلطان الديار المصرية وبين العساكر الخوارزمية حلفاء الأمس، بسبب أطماعهم في الحصول على المزيد من الإقطاعات في حلب وما جاورها، الأمر الذي أنكره الصالح أيوب من جهته، فانضموا إلى تحالف أمراء الشام المكون من الصالح إسماعيل وابن أخيه الناصر داود، واعترك الطرفان في حرب ألفت بشرها على أهالي المنطقة، فتضرر الكثير منهم بسببها (ابن واصل 1960 ج5: 283-284؛ الدواداري 1972 ج7: 353-356).

إضافة إلى تقلب الولاء لدى القبائل العربية البدوية المتواجدة في الأراضي الشامية، وانضمامها إلى الجانب الأقوى عسكرياً، مع الأخذ بعين الاعتبار المصالح والمكاسب، ولكن إذا ما حصلت على مبتغاها يصبح الغدر طابعها، فتثور لتنتقم، فيتحول أفرادها إلى غزاة وقطاعاً للطرق، ويصيبوا بشرورهم القاصي والداني في المناطق القريبة من تجمعاتهم، سيما وأن القبائل العربية تقطن في الأطراف المتلاصقة لأماكن سكنى الفلاحين وأراضيهم الزراعية، وقد تعرض الفلاح الشامي إلى أنواع الأذى والخراب والدمار على أيدي القبائل العربية التي كانت تهاجمهم في أراضيهم وتستولي على غلاتهم، وتحرم أطفالهم من قوت يومهم، وأتلك العصابات التي كانت تتشكل بين الحين والآخر، وتهدد سكان القرى في فلسطين وشرقي الأردن ودمشق مثل عصابات قنديل وابن الكعكي⁽⁴¹⁾، سنة 622هـ/1224م، التي كانت تهاجم الفلاحين في المزارع والبساتين فيقتلون وينهبون (سبط ابن الجوزي 2013 ج22: 274، 389؛ ابن واصل 1960 ج5: 220؛ النويري 2004 ج29: 86؛ غوانمة 1982: 182، 187)، وظلوا على ما هم عليه حتى انتهى الأمر بقتلهم فماتا الإثنتين (سبط ابن الجوزي 2013 ج22: 274).

ترتبت على هذه الأعمال تدهور حالة الفلاح المعيشية، وبخاصة أن طعامه يعتمد على الإنتاج الحيواني والزراعي كالزيت والحبس، والجلاب الذي يستخلص من العنب، وعصير قمر الدين من المشمش، والأجبان والأسمان والزبد والقشدة من ألبان البقر والماعز، والطحينة وزيت السيرج من السمسم، كما يعتمد في حياته المعيشية على تربية بعض الدواجن والطيور مثل الإوز والبط والطاووس والديك، كما يقوم بتربية النحل (الغزي 1991 ج1: 117-120). وكان الفلاح الشامي إذا تعذر حصوله على الدقيق يلجأ إلى استخدام نوع من أنواع الدخن يسمى (بكلك) في صناعة الخبز، وربما تناوله الأغنياء في سنوات القحط والجفاف (الغزي 1991 ج1: 102).

وقد ازدادت معاناة الفلاح الشامي بسبب غزوات العربان المستمرة، قبل أن يتدخل بعض السلاطين الأيوبيين أمثال: صلاح الدين وأخيه العادل وابن أخيه المعظم عيسى في الوقوف إلى جانب الفلاح، إذ لجأوا إلى منح الإقطاعات للقبائل البدوية وتوطينهم في المناطق الريفية، أو بعض المواقع الساحلية الإستراتيجية من أجل تقليل خطرهم على الدولة، وكف أيديهم عن التعرض للفلاحين ودفع مبلغ 100 دينار عن كل 1000 دينار من إقطاعاتهم (ابن الفرات 1970 م مج4، ج1: 148؛ المقريزي 1997 ج1: 263؛ فرح 1980 م مج2: 540)

وأحياناً كان البدو يستخدمون كأداة من قبل الأمير الإقطاعي في تخريب بعض المناطق الخارجة عن سلطته، كما

⁽⁴¹⁾ ابن الكعكي، وقنديل رجال عصابات أيام الملك المعظم عيسى وكان لهما اتباع وكان هدفهما السلب والنهب، وقد انتقما مع الملك الصالح إسماعيل شقيق الملك المعظم على انتزاع دمشق وعندما علم المعظم أرسل إلى نائبه في دمشق يقبض عليهما ويصلبهما منكرين، وأمر ألا يطعمهما أو يسقيهما حتى ماتا. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج22: 274؛ النويري، نهاية الأرب، ج29: 86.

فعل الملك الأشرف موسى عندما أمر العريان بنهب حلب وقرائها سنة 615هـ/1218م. (ابن العديم 1996 ج2: 645)، واستخدمهم الملك الأفضل والملك المنصور صاحب حماة في العام التالي إلى جانب مجموعة كبيرة من الأكراد في تخريب حلب، وقرى تل أعرن⁽⁴²⁾ والساجور⁽⁴³⁾، ونهب أموالها وغلاتها (النويري 2004 ج8: 257؛ الأوتاني 2007: 230). كما شاركت بعض العريان إلى جانب الملك المعظم سنة 623هـ/1226م في نهب قرى حمص والمعرة وحماة، واستولت على البيادر وحرمت الفلاحين من جمع المحصول والاستفادة منه (ابن العديم 1996 ج2: 649). ولقد شكلت غارات البدو والعريان على القرى والمزارع في بلاد الشام بين الحين والآخر خاصة في مواسم الحصاد وقطف الثمار لأخذ (الخاوة) من الفلاحين، مصدر خطر على أهالي تلك القرى والمزارع الذين تعرضوا لأعمال النهب والسلب والمصادرة، حتى وصل الحال بالأعرابي إلى الزواج بمن يشاء من بنات الفلاحين رغماً عن أنفسهم (فرح 1980 مج2: 538).

وعليه، فإن تمادي القبائل العربية في التمرد والخروج عن طاعة الحكام الأيوبيين في بعض فترات الحكم يعتمد وبدرجة كبيرة على قوة أو ضعف سلاطين وملوك الأيوبيين، وقدرتهم على ضبط أحوالهم وعدم السماح لهم بالخروج عن طاعتهم، كالسلطان صلاح الدين وأخيه العادل، ولكن اختلف الأمر لدى بعض أمراء الدولة الأيوبية، إذ سعوا إلى استخدام القبائل العربية كوسيلة لأجل تحقيق مصالحهم الشخصية، واعتمدوا عليهم في بناء قواهم العسكرية التي استخدموها خلال الحروب الإقطاعية التي جرت في أرض الشام، وأسهمت إلى حد ما في نشر الدمار والخراب في القرى وأراضيها الزراعية، سيما وأن سياستها تقوم على الغزو والسلب والنهب، فطال ضررها جميع القاطنين فيها دون استثناء.

النتائج

خلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج، أهمها:

- ألحقت الحروب التي جرت في معظم مناطق بلاد الشام أضراراً بالغة في قطاع الزراعة، حيث سببت تدنياً في مستوى الإنتاج الزراعي، بعد أن تحولت تلك الأراضي الزراعية إلى ساحات للحروب، سواء التي جرت بين ملوك وأمراء البيت الأيوبي أنفسهم، أو تلك التي حدثت بين المسلمين وأعدائهم من الإفرنج. ولا شك أن الهجمات الإفرنجية المتكررة على الأراضي الشامية أثرت سلباً في حياة المعتاشين على الزراعة التي لا طالما عانوا بسبب تردي حال المجتمع الإسلامي بأسره في ظل السيطرة الإفرنجية على أجزاء من البلاد الشامية، دون أن يتخذ الحكام الأيوبيين في تلك المناطق أي تدابير أو إجراءات احترازية تقف في وجه تقدم الغزاة الإفرنج.
- ما ذكرته المصادر الإسلامية عن سوء الأحوال والأحداث المؤلمة التي تعرضت لها معظم البلدان الشامية اعقاب وفاة السلطان صلاح الدين تؤكد أن المعاناة سادت جميع فئات المجتمع الشامي وخلخلت أركانه وقوضت دعائمه في الجانب الاقتصادي وبخاصة فئة الفلاحين.
- إجراءات العساكر الأيوبية والإفرنجية في تخريب المزارع والضياع، وقد أثرت على مجرى حياة الفلاحين وما تقدمه الجهود المبذولة من إنتاج يؤمن مصدر رزق لهم ولأسرهم. فالحروب كانت سبباً في ابتعادهم عن أعمالهم، واختبائهم في المنازل خوفاً على أرواحهم.

⁽⁴²⁾ تل أعرن: قرية كبيرة من نواحي حلب. انظر: الحموي، معجم البلدان، مج 2: 39.

⁽⁴³⁾ الساجور: اسم نهر بمنبج. انظر: الحموي، معجم البلدان، مج 3: 170.

- تعد فترة السلطان العزيز عثمان في حكم الدولة الأيوبية، هي من أكثر الفترات التاريخية الأيوبية التي شهدت صراعات عسكرية أيوبية أيوبية.
- أسهمت وبشكل كبير في خلخلة أركان المجتمع الشامي وتقويض دعائمه في الجانب الاقتصادي.
- شكّلت التحالفات العسكرية ابان الحكم الايوي مع الإفرنجي والخوارزمية مصدر قلق للفلاحين وأراضيهم ومنتجاتهم الزراعية في المنطقة الشامية؛ حيث جعلت المنطقة عرضة للدمار والخراب ومسرحًا لتصفية الحسابات ما بين الملوك والأمراء الأيوبيين من أجل تحقيق مصالحهم وأطماعهم الشخصية.
- شكّلت غارات البدو والعربان على القرى والمزارع في بلاد الشام خاصة في موسم الحصاد وقطف الثمار لأخذ (الخواوة) من الفلاحين، مصدر خطر على أهالي تلك القرى والمزارع الذين تعرضوا لأعمال النهب والسلب والمصادرة.
- اعتمد تمادي القبائل العربية وتمردا واخروجها عن طاعة الحكام الأيوبيين على قوة أو ضعف سلاطين وملوك الأيوبيين، وقدرتهم على ضبط أحوالهم وعدم السماح لهم بالخروج عن طاعته. وكانت معاناة الفلاح الشامي تزداد بسبب غزوات العربان المستمرة، قبل أن يتدخل بعض السلاطين الأيوبيين في الوقوف إلى جانب الفلاح بمنح الإقطاعات للقبائل البدوية وتوطينهم في المناطق الريفية، والمواقع الساحلية الإستراتيجية من أجل تقليل خطرهم وكف أيديهم عن التعرض للفلاحين.

The Impact of Military Conflicts on the Shami Peasantry During the Ayyubid Rule (570-648 AH /1174-1250 AD)

*Mahmoud Mohammad Al Rwaidi, Abdalmoiz Asri Bani Issa²,
Mohammad Ali Al Mazawdah³*

ABSTRACT

The study examines the impact that the military conflicts with the Franks and between the heirs of the Sultan Salah al-Din and his brother had on the lives of the peasants in Bilad al-Sham during the Ayyubid period. It also shows the accompanying displacement of farmers, abandonment of agricultural lands, neglect of agricultural activities, and the increase in prices and their impact on the lives of the farmers. It also clarifies the role of the Arab tribes in causing harm and destruction to the peasants' lands in some Levantine regions.

Keywords: *Bilad al-Sham, Ayyubids, Franks, Agriculture.*

¹ Email, rwaidi64@yahoo.com, (Mahmoud Mohammad Al Rwaidi) Orcid number: <https://orcid.org/0009-0001-4347-7541>, Department of History, Faculty of Social Science, Mutah University, Jordan.

² Email, Abdalmoiz.b@yu.edu.jo, (Abdalmoiz Asri Bani Issa) Orcid number: <https://orcid.org/0000-0001-8914-370X>, Department of History, Faculty of Art, Yarmouk University, Jordan.

³ Email, m.almazawdah@qu.edu.qa, (Mohammad Ali Al Mazawdah) Orcid number: <https://orcid.org/0000-0002-0182-7654>, Department of Humanities, College of Arts and Sciences, Qatar University, Qatar; Department of History, Faculty of Art, Yarmouk University, Jordan.

Received on 11/11/2021 and accepted for publication on 30/1/2022.

المصادر والمراجع العربية

- الأصفهاني، عماد الدين الكاتب (ت 597هـ/1193م) (2004)؛ *الفتح القسي في الفتح القدسي*، القاهرة: دار المنار.
- ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد الشيباني (ت 630هـ/1232م) (1963)؛ *تاريخ الباهر في الدولة الأتابكية*، تحقيق عبد القادر أحمد طليحات، القاهرة: دار الكتب الحديثة.
- ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد الشيباني (ت 630هـ/1232م) (2012)؛ *الكامل في التاريخ*، 11 ج، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، بيروت: دار الكتاب العربي.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغريد بردي العتابكي (ت 874هـ/1469م) (1929)؛ *النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة*، القاهرة: دار الكتب مع الاستشهادات والفهارس للجامعة ووزارة الثقافة والإرشاد القومي والهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.
- ابن شداد، بهاء الدين (ت 632هـ/1232م) (1992)؛ *النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية*، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة: مكتبة الخانجي.
- ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت 660هـ/1261م) (1988)؛ *بغية الطلب في تاريخ حلب*، تحقيق سهيل زكار، دمشق: دار الفكر.
- ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت 660هـ/1261م) (1996)؛ *زبدة الطلب من تاريخ حلب*، بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن العماد الحنبلي، شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد (ت 1089هـ/1678م) (1996)؛ *شذرات الذهب في أخبار من ذهب*، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، بيروت: دار ابن كثير.
- ابن العميد، جرجس (1996)؛ *أخبار الأيوبيين*، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت 807هـ/1404م) (1970)؛ *تاريخ ابن الفرات*، مج 5، ج 1، تحقيق حسن الشمعة، البصرة: المطبعة الحديثة.
- ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت 749هـ/1348م) (2010)؛ *مسالك الأبصار في ممالك الأمصار*، تحقيق كامل الجبوري، بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر (ت 774هـ/1372م) (1985)؛ *البداية والنهاية*، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة: هجر للطباعة والنشر.
- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت 697هـ/1298م) (1960)؛ *مفرج الكروب في أخبار بني أيوب*، تحقيق حسنين محمد ربيع، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية.
- أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت 665هـ/1266م) (1997)؛ *الروضتين في أخبار الدولتين*، 5 ج، تحقيق إبراهيم الزبناك، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت 665هـ/1266م) (2002)؛ *تراجم رجال القرنين السادس والسابع (الذيل على الروضتين)*، بيروت: دار الكتب العلمية.
- أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر (ت 732هـ/1331م) (1907)؛ *تاريخ المختصر في أخبار البشر*، مصر: المطبعة الحسينية.
- الأوتاني، أحمد (2007)؛ *دمشق في العصر الأيوبي 570 - 658 هـ الموافق لـ 1174 - 1260 م دراسة سياسية، اقتصادية، اجتماعية، ثقافية*، سوريا: التكوين للتأليف والترجمة والنشر.

- البنداري، الفتح بن علي (عاش في القرن الثالث عشر الميلادي) (1997)؛ *سنا البرق الشامي*، تحقيق فتحية النبراوي، مصر: مكتبة الخانجي.
- ثيودريش (القرن 12 ميلادي 6 هجري) (2003)؛ *وصف الأماكن المقدسة في فلسطين*، ترجمة وتعليق سعيد البيشاوي ورياض شاهين، عمان: دار الشروق.
- الحايك، منذر (2006)؛ *العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية*، دمشق: الأوائل للنشر والتوزيع.
- حبشي، حبش (ترجمة وتعليق) (2000)؛ *الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد)*، ج2، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- حمدي، حافظ أحمد (1949)؛ *الدولة الخوارزمية والمغول*، القاهرة: دار الفكر.
- الحموي، ياقوت ابن عبد الله (ت 626هـ/1228م) (1977)؛ *معجم البلدان*، بيروت: دار صادر.
- الخطيب، مصطفى عبد الكريم (1996)؛ *معجم المصطلحات والألقاب التاريخية*، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- دهمان، محمد أحمد (1990)؛ *معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي*، بيروت: دار الفكر المعاصر.
- الدواري، أبو بكر بن عبد الله بن أبيك (ت 736هـ/1338م) (1972)؛ *كنز الدرر وجامع الغرر (الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب)*، تحقيق سعيد عاشور، القاهرة: المعهد الألماني.
- رمضان، أحمد (1977)؛ *المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية*، القاهرة: مؤسسة روزاليون.
- الزبيدي، المرتضى محمد بن محمد (ت 1205هـ/1790م) (1969)؛ *ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب*، تحقيق صلاح الدين المنجد، بيروت: دار الكتاب الجديد.
- زكار، سهيل (تأليف وتحقيق وترجمة) (1993)؛ *”لمحة ريتشارد قلب الأسد“*. منشور في: الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج9، دمشق: دار الفكر.
- زكار، سهيل (تأليف وتحقيق وترجمة) (1998)؛ *”صليبية ريتشارد قلب الأسد“*. منشور في: الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، نظمها بالفرنسية القديمة أمبروز، ج 32، القسم الأول، صص 3-356، دمشق: دار الفكر.
- زكار، سهيل (تأليف وتحقيق وترجمة) (2000)؛ *”ورود التاريخ“*. منشور في: الموسوعة الشامية لتاريخ الحروب الصليبية، تصنيف روجر أوف ويندوفر، مج39، قسم2، دمشق: دار الفكر.
- سبط ابن الجوزي، يوسف بن قز أوغلي (ت 654هـ/1256) (2013)؛ *مرآة الزمان في تواريخ الأعيان*، تحقيق إبراهيم الزبيق وآخرون، دمشق: الرسالة العالمية.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك (ت 764هـ/1363م) (2003)؛ *الوافي بالوفيات*، تحقيق أحمد الأرناؤوط، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- العيني، بدر الدين بن محمد بن محمود (ت 855هـ/1451م) (2010)؛ *عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان*، تحقيق محمود رزق محمود، القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية.
- الغزي، كامل بن حسين الحلبي (ت 1353هـ/1933م) (1991)؛ *نهر الذهب في تاريخ حلب*، المحقق محمود فاخوري، دمشق: دار القلم.
- غوانمة، يوسف (1982)؛ *التاريخ الحضاري لشرق الأردن في العصر المملوكي*، القاهرة: دار المنار.
- فرح، نعيم (1980)؛ *ملاحم من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري*، دمشق: الاتحاد العام للفلاحين.
- لويس، برنارد (2006)؛ *الحشاشون*، تعريب محمد العزب، القاهرة: مكتبة مدبولي، الطبعة 2.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت 845هـ/1441م) (1997)؛ *السلوك لمعرفة دول الملوك*، تحقيق محمد عبد القادر عطا،

بيروت: دار الكتب العلمية.

المنصوري، أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف الحموي (ت 825هـ / 1441م) (1993)؛ *التاريخ المنصوري (تلخيص الكشف والبيانات في حوادث الزمان)*، تحقيق أبو العبد دودو وعدنان درويش، دمشق: مطبعة الحجاز .
النخيلي، درويش (1974)؛ *السفن الإسلامية على حروف المعجم*، الإسكندرية: جامعة الإسكندرية.
النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 733هـ / 1332م) (2004)؛ *نهاية الأرب في فنون الأدب*، تحقيق نجيب فواز، بيروت: دار الكتب العلمية.
هنتس، فالتر (1970)؛ *المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المترى*، ترجمة كامل العسلي، عمان: منشورات الجامعة الأردنية.

REFERENCES

- al-'Aṣfahānī, 'Imād al-Dīn al-Kātib (d 597 H./1193 A.D.)(2004); *al-Faḥ al-Qusī fī al-Faḥ al-Qudsī*, Cairo: Dār al-Manār.
- al-'Awtānī, Aḥmad (2007); *Damascus in the Ayyubid Period 570-658 H./ 1174-1260 A.D.: Dirāsah Siāsīyah, Iqtisādīyah, Ijtīmā'īyah, Thaqāfīyah*, Damascus: al-Takwīn lil-Ta'līf wa-al-Tarjamah wa-al-Nashir.
- al-'Aynī, Badr al-Dīn Abū Muḥammad ibn Maḥmūd (d. 855 H./1451 A.D.)(2010); *Iqd al-Jumān fī Tārīkh 'Ahl al-Zamān*, Maḥmūd Rizq Maḥmūd ed., Cairo: Dār al-Kutub wa-al-Wathā'iq al-Qawmīyah.
- Abū al-Fidā', Ismā'īl ibn 'Alī ibn Maḥmūd ibn Muḥammad ibn 'Umar (d. 732 H./1331 A.D.)(1907); *Tārīkh al-Mukhtaṣar fī Akhbār al-Bashar*, Cairo: al-Maṭba'ah al-Ḥusaynīyah.
- Abū Shāmah, 'Abd al-Raḥmān ibn Ismā'īl al-Maqdisī (d. 665 H./1266 A.D.)(1997); *al-Rawḍataīn fī Akhbār al-Dawlataīn*, Ibrāhīm al-Zibāk ed., Beirut: Mu'assasat al-Risālah.
- Abū Shāmah, 'Abd al-Raḥmān ibn Ismā'īl al-Maqdisī (d. 665 H./1266 A.D.)(2002); *Tarājim Rijāl al-Qarnaīn al-Sādis wa-al-Sābi' (al-Daīl 'alā al-Rawḍataīn)*, Beirut: Dār al-Kutub al-'Ilmīyah.
- Ḥabashī, Ḥabash (Investigation and Translation)(2000); *The Third Crusade (Ṣalaḥ al-Dīn and Richard)*, Cairo: al-Hai'ah al-Miṣrīyah lil-Kitāb.
- al-Bandārī, al-Faḥ ibn 'Alī (d. 643 H./1245 A.D.)(1997); *Sanā al-Barq al-Shāmī*, Faḥīyah al-Nabrāwī ed., Cairo: Maktabat al-Khānjī.
- Dahmān, Muḥammad Aḥmad (1990); *Dictionary of Historical Terms in the Mamluk Period*, Beirut: Dār al-Fikr al-Mu'āṣir.
- al-Dawādārī, Abū Bakr ibn 'Abd Ullāh ibn 'Aibak (d. 736 H./1335 A.D.)(1972); *Kinz al-Durar wa-Jāmi' al-Ghurar (al-Dur al-Maṭlūb fī Akhbār Mulūk Banī Ayyūb)*, Sa'id 'Ashūr ed., Cairo: German Institute.
- Faraḥ, Na'im (1980); *Aspects of the History of Farmers in the Arab Nation and Their Struggle in the Region of Arab Syria*. Damascus: al-'Ittiḥād al-'Ām lil-Falāḥīn.
- Ghawānmah, Yūsuf (1982); *The History of Civilization of Transjordan in the Mamluk Period*, Cairo: Dār al-Manār.
- al-Ghazī, Kāmil ibn Ḥusān al-Halabī (d. 1353 H./1933 A.D.)(1991); *Nahr al-Dahab fī Tārīkh Ḥalab*, Maḥmūd fākhūrī ed., Damascus: Dār al-Qalam.
- al-Ḥamawī, Yāqūt, Ibn 'Abd Ullāh (d. 626 H./1228 A.D.)(1977); *Mu'jam al-Buldān*, Beirut: Dār Sādir.
- Ḥamdī, Ḥāfiẓ Aḥmad (1949); *The Khwarazmian State and the Mongols*, Cairo: Dār al-Fikr.
- al-Ḥāyīk, Muṇḍir (2006); *International Relations in the Period of the Crusades*, Damascus: al-'Awā'il lil-Nashr wa-al-Tawzī'.
- Hinz, Walter (1970); *Measures and Weights in the Islamic World*, Kāmil al-'Asalī tran., Amman: Manshūrāt al-Jāmi'ah al-'Urdunīyah.
- Ibn al-'Adīm, Kamāl al-Dīn 'Umar ibn Aḥmad (d. 660 H./1261 A.D.)(1988); *Bughyat al-Ṭalab fī Tārīkh Ḥalab*, Suḥāil Zakkār ed., Beirut: Dār al-Fikr.
- Ibn al-'Adīm, Kamāl al-Dīn 'Umar ibn Aḥmad (d. 662 H./1262 A.D.)(1996); *Zubdat al-Ḥalab fī Tārīkh Ḥalab*. Beirut: Dār al-Kutub al-'Ilmīyah.
- Ibn al-'Amīd, Jirjis (1996); *The History of the Ayyubids*, Cairo: Maktabat al-Thaqāfah al-Dīnīyah.
- Ibn al-'Athīr, 'Izz al-Dīn 'Alī ibn Muḥammad al-Shaybānī (d. 630H./1232A.D.)(1963); *Tārīkh al-Bāhir fī al-Dawlah al-'Atābakīyah*, 'Abd al-Qādir Aḥmad Ṭulaymāt ed., Cairo: Dār al-Kutub al-Ḥadīthah.
- Ibn al-'Athīr, 'Izz al-Dīn 'Alī ibn Muḥammad al-Shaybānī (d. 630H./1232A.D.)(2012); *al-Kāmil fī al-Tārīkh*, 'Umar 'Abd al-Salām al-Tadmurī ed., Beirut: Dār al-Kitāb al-'Arabī.
- Ibn Faḍl Lilāh al-'Omarī, Shihāb al-Dīn Abū al-'Abbās Aḥmad ibn Yaḥya (d. 750 H./1349 A.D.)(2010); *Masālik al-'Absār fī Mamālik al-Amsār*, Beirut: Dār al-Kutub al-'Ilmīyah.

- Ibn al-Furāt, Nāṣir al-Dīn Muḥammad ibn ‘Abd al-Raḥīm (d. 807 H./1404 A.D.)(1970); *Tārīkh Ibn al-Furāt*, 5 Vols., Part 1, Ḥasan al-Sham‘ah ed., Baṣrah: al-Maṭba‘ah al-Ḥadīth.
- Ibn al-‘Imād al-Ḥanbalī, Shihāb al-Dīn Abī al-Falāḥ ‘Abd al-Ḥayī ibn ‘Aḥmad ibn Muḥammad (d. 1089 H./1678 A.D.)(1991); *Shaḍarāt al-Dahab fī Akhbār Man Dahab*, Damascus: Dār Ibn Kathīr.
- Ibn Kathīr, ‘Imād al-Dīn Abī al-Fidā’ Ismā‘īl ibn ‘Umar (d. 774 H./1372 A.D.)(1985); *al-Bidāyah wa-al-Nihāyah*, ‘Abd Ullāh ibn ‘Abd al- Muḥsin al-Turkī ed., Cairo: Hajr lil-Ṭibā‘ah wa-al-Nashr.
- Ibn Shaddād, Bahā’ al-Dīn (d. 632 H./1234 A.D.)(1992); *al-Nawādir al-Sultānīyah wa-al-Maḥāsīn al-Yūsufīyah*, Jamāl al-Dīn al-Shayyāl ed., Cairo: Maktabat al-Khānjī.
- Ibn Taghrī Birdī, Jamāl al-Dīn Abū al-Maḥāsīn Yūsuf ibn Taghrī Birdī al-‘Atābakī (d. 874.H./1469A.D.)(1929); *al-Nujūm al-Zāhirah fī Akhbār Mulūk Miṣr wa-al-Qāhirah*. Cairo: Dār al-Kutub.
- Ibn Wāṣil, Jamāl al-Dīn Muḥammad ibn Sālim (d. 697 H./1297 A.D.)(1960); *Mufarrij al-Kurūb fī Akhbār Banī ‘Ayyūb*, Ḥasanīn Muḥammad Rabī‘ ed., Cairo: Dār al-Kutub wa-al-Wathā‘iq al-Qawmīyah.
- al-Khatīb, Muṣṭafa ‘Abd al-Karīm (1996); *Dictionary of Historical Terms and Titles*, Beirut: Mu‘assasat al-Risālah.
- Lewis, Bernard (2006); *The Assassins: A Radical Sect in Islam*, Muḥammad al-‘Azab trans., Cairo: Maktabat Madbūlī, 2nd ed.
- al-Manṣūrī, Abū al-Faḍā’il Muḥammad ibn ‘Alī ibn Naṣif al-Ḥamawī (d. 650 H./1252 A.D.)(1993); *al-Tārīkh al-Manṣūrī (Talkhīṣ al-Kashf wa-al-Bayānāt fī Hawādith al-Zamān)*, Abū al-‘Abd Dūdū and ‘Adnān Darwīsh eds., Damascus: Maṭba‘at al-Hijāz.
- al-Maqrīzī, Taqī al-Dīn ‘Aḥmad ibn ‘Alī (845H./1441 A.D.)(1997); *al-Sulūk li-Ma‘rifat Duwal al-Mulūk*, Muḥammad ‘Abd al-Qādir ed., Beirut: Dār al-Kutub al-‘Ilmīyah.
- al-Nakhīlī, Darwīsh (1974), *al-Sufun al-Islāmīah ‘alā Ḥurūf al-Mu‘jam*, al-‘Iskandriyah: Jāmi‘at al-‘Iskandriyah.
- al-Nuwairī, Shihāb al-Dīn ‘Aḥmad ibn ‘Abd al-Wahāb (d. 733 H./1333 A.D.)(2004), *Nihāyat al-‘Arab fī Funūn al-‘Adab*, Najīb Fawwāz ed., Beirut: Dār al-Kutub al-‘Ilmīyah.
- Ramaḍān, Aḥmad (1977); *Islamic Society in Bilad al-Sham in the Period of the Crusades*, Cairo: Mu‘assasat Rūzalīyūn.
- Sibt ibn al-Jawzī, Yūsif ibn Qizughlī (d. 654 H./1256 A.D.)(2013); *Mir‘āt al-Zamān fī Ta’rīkh al-A‘yān*, Ibrāhīm Zaibaq et.al. eds., Damascus: Mu‘assasat al-Risālah al-‘Ālamīyah.
- al-Ṣafādī, Ṣalāḥ al-Dīn Khalīl ibn ‘Aibak (d. 764 H./1363 A.D.)(2003); *al-Wāfi bi-al-Wafiyāt*, Aḥmad al-‘Arnā’ūt ed., Beirut: Dār ‘Iḥya’ al-Turāth al-‘Arabī.
- Theoderich (6 century H./12 century A.D.)(2003); *Description of the Holy Places in Palestine*, Sa‘īd al-Bishāwī and Riyāḍ Shāhīn eds., ‘Ammān: Dār al-Shurūq.
- Zakkār, Suḥāil (Authorization, Investigation and Translation)(1993); *“The Wars of Richard the Lionheart”*. Within: al-Mawsū‘ah al-Shāmīyah fī Tārīkh al-Ḥurūb al-Ṣalībīyah, Damascus: Dār al-Fikr.
- Zakkār, Suḥāil (Authorization, Investigation and Translation)(1998); *“The Crusade of Richard Hatred of Lion”*. Within: al-Mawsū‘ah al-Shāmīyah li-Tārīkh al-Ḥurūb al-Ṣalībīyah, Ambroise organized it in Old Frenched, Vol. 32, Part 1, Pp: 3 -356, Damascus: Dār al-Fikr.
- Zakkār, Suḥāil (Authorization, Investigation and Translation)(2000); *“Flores Historiarum”*. Within: al-Mawsū‘ah al-Shāmīyah li-Tārīkh al-Ḥurūb al-Ṣalībīyah, classification by Roger of Wendover, Volume 39, Part 2, Pp: 511-1042, Damascus: Dār al-Fikr.
- al-Zubāidī, al-Murtaḍah Muḥammad ibn Muḥammad (d 1205 H./ 1790 A.D.)(1969); *Tarwīḥ al-Qulūb fī Dīkr al-Mulūk Banī ‘Ayoūb*, Ṣalāḥ al-Dīn al-Munjid ed., Bairūt: Dār al-Kitāb al-Jadīd.